كلمة العدد

الأسرة الواحدة.. والثوابت التاريخية

بقلم : سمو الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

منذ تولي آل خليفة حكم البحرين وأعادوا لهذه الأرض الطيبة وجهها العربي الأصيل قام حكمهم على مجموعة من الثوابت نبتت جذورها من تراث عربي عريق توارثته الأجيال المتعاقبة وقامت أسسه على تقاليد إنسانية وعربية كبيرة وعظيمة سادت الجزيرة العربية منذ القدم واقرها الإسلام لما وجده فيها من دعائم للحق والعدل وللقيم الإنسانية النبيلة التي تربط بين بني الإنسان برباط من المحبة والتآلف والتعاون والتآزر وإنصاف المظلوم وردع الظالم والتعاون على البر والتقوى وروح الأسرة الواحدة التي تظللها هذه القيم وتصونها وتحميها . هذه

الثوابت حرص عليها آل خليفة حرصاً شديداً وأقاموا حكمهم على دعائمها فأبناء الوطن أسرة واحدة وحاكم البلاد هو رب الأسرة بكل مافي الكلمة من معنى . . فهو يهتم ويحمي ويرعى ويتابع عن قرب ويقف إلى جوار الجميع بروح الأب قبل سلوك الحاكم . . هذا الثابت وهو روح الأسرة الواحدة كان طوال حكم آل خليفة هو النظام السياسي الأصيل الذي قام ويقوم عليه حكمهم ونظامهم . . وقد عمق المغفور له الراحل الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة هذا الروح فكان - رحمه الله - دائماً إلى جوار كل مواطن بحريني أباً يرعى ويحمي ويعطي . . وقد حرص جلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك البحرين والذي نشأ في رحاب هذا الثابت الأصيل . . على أن تستمر هذه السياسة أو هذا الثابت وأن يتأصل ويتجذر وينمو ويمتد . . ولم يعد هناك أدنى شك لأي مراقب أن البحرين في ظل هذا النظام الفذ تعيش فعلاً حياة أسرة واحدة . . فالحاكم هو أخ وأب، وهو سدٌ منيع وحصن شامخ يذود بكل ما أوتي عن مستقبل هذا الوطن وعن سعادة أبنائه . . يقود السفينة وسط بحر العصر المتلاطم الذي تعصف به الأزمات من كل ناحية وتهاجمه المؤامرات من كل صوب وتطل عليه الأطماع بعين حقود . . كل ذلك وهو ممسك الدفة بيد ثابتة ويقود السفينة بعين يقظة واعية تعرف جيداً طبيعة الأرض وطبيعة المياه وطبيعة الركاب ويعالج كل شيء بحنكة ربان بارع يحافظ على الثوابت التي انحدرت إليه عبر أجيال طويلة ويجعل من البحرين أسرة واحدة تعي جيداً ما يحيط بها وتعرف جيداً ما يكتنف العصر الحاضر من أزمات روعت الكثير من الدول وفتكت بالعشرات من الأوطان وحولت كثيراً من البلاد إلى أشلاء يقتل أبناؤها

بعضهم بعضاً ويفتك بعض أبنائها بالبعض الآخر بعد أن سقطوا في أيدي المعادين لهم والذين لا يريدون لهم خيراً ولا أملاً ولا أمناً .

لقد تعددت طوال التاريخ النظم السياسية بين رأسمالية وشيوعية واشتراكية ودكتاتورية وديموقراطية . . كل هذه النظم السياسية التي وضعها مفكرون سياسيون على مدى التاريخ أعلنت كلها أن هدفها الأساسي والرئيسي هو توفير العدالة والأمن والرخاء للمواطنين الذين يعيشون في دولة ما، أو وطن ما, بعضها نجح في مكان وفشل في آخر . . وبعضها تحول إلى سوط عذاب يمزق ظهور المواطنين . . نظام واحد ظهر هنا في البحرين . . هذا الوطن القديم والحديث معاً . . هو كما أشرت في بداية هذه السطور . . هو نظام الأسرة الواحدة . . ففي ظل هذا النظام الأساسي تأخذ البلاد بأفضل ما يناسبها من أنظمة أخرى . . ولكن العباءة العريضة . . ولكن السياسة الراسخة . . ولكن الركن الرئيسي هو روح الأسرة ففي ظلها يتحول المواطنون، أياً كانت انتماءاتهم أو ميولهم، إلى إخوة . . قد يختلفون ولكنهم يظلون إخوة . . قد يتفرقون ولكنهم يعودون دائماً لدفء الأسرة وحنان الأب ورعايته . . قد يؤمن أحدهم بشيء غير مايؤمن به أخوه ولكنهما قبل كل شيء وبعد كل شيء أخوان . . فالأخوة هي الأساس وهي الباقية وهي الدرع التي تحمي وتصون عندما تشتد الأزمات وعندما تتعرض الأسرة لكيد الأعداء وحسد الحاسدين وأحقاد الغادرين .

وكم تمنينا أن تمتد هذه الروح إلى غير البحرين من دول العالم العربي فلو أدرك العرب قبل كل شيء أنهم إخوة وأن هؤلاء الإخوة

يشكلون أسرة لما عصفت بهم الخلافات ولما فرقتهم الاتجاهات ولما تمكنت بعض القوى من اختراق صفوفهم وتمزيق وحدتهم والحيلولة بينهم وبين بناء مستقبلهم المأمول . . فالمواطن، أي مواطن، لا يحلم إلا بالأمن والأمان له ولأبنائه من بعده . . هذا الأمن والرخاء لا يمكن أن يتحقق في جو مذ الفرقة والنزاع والتنابذ . . فالوحدة والأخوة هي المناخ المناسب . . بل المناخ الوحيد لتحقيق آمال كل المواطنين في مستقبل أفضل وعالم أكثر أمناً وأماناً للجميع . . إن البناء يحتاج إلى الاستقرار وأي دولة تتعرض للخلاف والفرقة لا يمكن أن تبنى أو أن تنمو . . وبدون البناء، وبدون التنمية، لا مستقبل لأحد في أي وطن وعلى أي أرض . . وقد أثبتت روح الأسرة التي يدعمها ملكنا المعظم حمد بن عيسى أنها الطريق السليم والوحيد لتجنيب الوطن مخاطر العصر وتحدياته وخلق الجو المناسب والمناخ السليم للانطلاق بنا ومعنا لبناء غد أفضل لنا ولأبنائنا من بعدنا .

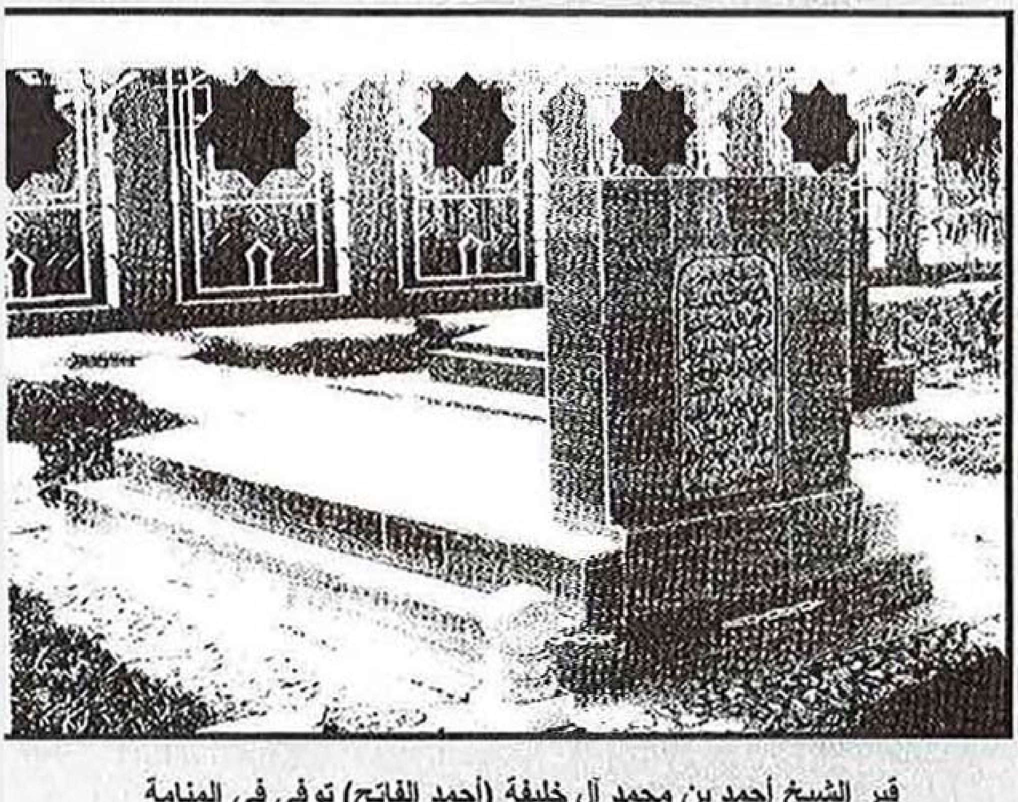
وبالله التوفيق

عبد الله بن خالد آل خليفة

صفحات من تاريخ البحرين

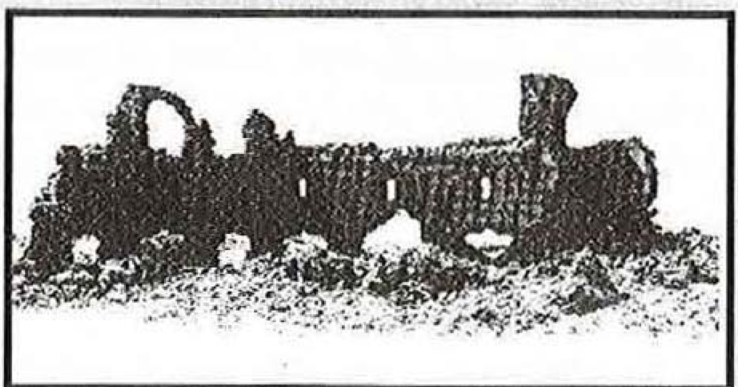
نبذة تاريخية عن الأسرة الحاكمة في البحرين

من يبحث في تاريخ البحرين سيجد أن أسرة آل خليفة هي الأسرة التي حكمت البحرين منذ تحريرها من النفوذ الأجنبي عام ١٧٨٣ على يد الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة . ولابد أن نذكر موطنها الأصلي ونسبها وسبب نزوحها ومتى نزحت من مرابعها .



قبر الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة (أحمد الفاتح) توفى في المنامة

خلال قرنين (١٧٨٣-١٩٨٣م)



آثار قلعة مرير التي بناها الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة في الزبارة

بقلم :
الدكتور علي أباحسين

إن موطن أسرة آل خليفة في نجد في منطقة تعرف بـ (الهدار) والأفلاج قرب وادي الدواسر وهي منطقة غنية ببساتين النخيل وغيرها من الأشجار البرية مثل القاف والسلم والسدر والطلح . وأهم مدنها مدينة (ليلى)[1] التي تبعد ثلثمائة وثلاثين كيلومترا عن الرياض، وخمسمائة وخمسة وعشرين كيلومترا عن البحرين .

ومما يذكر أن مدينة ليلى حافظت كثيراً على تراثها المعماري القديم حيث تجد كثيراً من سطوح منازلها مزيناً بنقوش تسمى (الحمام) كما هو معروف عندنا بالبحرين . كما أن مواد البناء المستخدمة هي نفس ما كان يستخدم للبناء في البحرين من الطين والحجارة وسقفت بجذوع النخيل . وجدير بالذكر كثرة العيون الطبيعية في منطقة الأفلاج . والأفلاج هي جمع (فلج) أي الماء الجاري من العين لانفلاجه أي بانفتاحه . كذلك (الهدار) يعني السيل الكثير الهدران . وتمتد الأفلاج على مسافة لا تقل عن مائتي كيلومتر من وادي (برك) شمالاً إلى وادي (الضبيعة) جنوباً . ومن الأماكن المعروفة بالأفلاج (الغيل) : أي الأرض الرخوة و(السيح) أي الماء الجاري على سطح الأرض و(سحاب) وهو وادي تطل عليه ليلى، ومعروف أنه الغيم المطر . ثم (القمع ، وبرك، والمعيدر، ونباع) .

نخلص من كل ذلك إلى أن منطقة الأفلاج غنية بمياهها وزراعتها وهذا ما يفسر استقرار القبائل النازحة منها على سواحل الخليج الغنية بالعيون العذبة ثم تأقلمها هناك . ويعتقد الرحالة (فلبي) الذي زار الأفلاج بأنها كانت منطقة (فينيقية) حيث وجد آثار مقابرهم فيها .

وقد كانت منطقة الأفلاج ذات أهمية تجارية تمر عبرها السلع من الشرق إلى الغرب عن طريق الخليج العربي حيث تصل ميناء (العقير) ثم الأحساء ثم اليمامة فالأفلاج ومنها إلى (وادي الدواسر) ثم ساحل البحر الأحمر الذي كان يسمى بـ (بحر قلزم) أو بحر مكة في الخرائط القديمة . وقد حدث ذلك أيام دولة (السبئيين) في اليمن ٨٠٠ — ١١٥ قبل الميلاد أي أن استخدم الرومان البحر الأحمر كطريق يؤدي إلى الخليج، فاندثر طريق التجارة عبر الأفلاج ومن مدن الأفلاج (البديع) التي سكنتها قبيلة (جميلة)، وهي من عنزه وتبعد عن (ليلى) حوالي ٣٢ كيلومترا جنوباً، وعن وادي الدواسر بنحو ٣٠٠ كيلومتراً،

وهي مدينة صغيرة اشتهرت بالزراعة وبها قصر (سلمى) الذي بناه (فيصل الجميلي) ولايزال موجوداً . يزيد طول سوره على ٨٠٠ قدم، ويحيط به خندق ماء بعمق خمسة أمتار، وفيه ثمانية أبراج، وباب القصر أو القلعة في جهة الشرق، وعرضه اثنا عشر قدماً.

وتروى قصة طريفة عن بناء ذلك (الحصن) وهي أن (فيصل الجميلي) كان يدفع إتاوة سنوية لشريف مكة، وفي إحدى المرات التي ذهب فيها إلى مكة ليدفع الإتاوة مرَّ على (غار ضب) حصنه الضب عن السيل بأن وضع سداً من التراب والحجارة ليحمي جحره من تدفق السيل فرسخت الفكرة في رأسه، وحين عاد إلى قومه شرع في بناء الحصن (سلمى) وحفر حوله الخندق وكف عن دفع الإتاوة فأرسل له شريف مكة قوة لم تستطع دخول الحصن وعاد قائدها ليقول للشريف وجدنا (سلمى) أسفلها ماء وأعلاها في السماء، ويقال أن ذلك حدث قبل عام ١٠١٠ هجرية، وهي السنة التي توفي فيها الشريف حسن بن أبي نمي وهو في طريقه إلى نجد بعد أن فتح حصوناً في البديع والخرج والسالمية وقرية اليمامة أما عن كيفية بناء ذلك الحصن فقد بناه فيصل الجميلي بسبعة جدران متراصة مع ثمانية أبراج موزعة على جميع الجهات . ويذكر أن بطون جميلة في الهدار اختلفت وحدثت بينهم فتنة نزحوا على أثرها عن الهدار وسكن الدواسر قلعة (سلمى) .

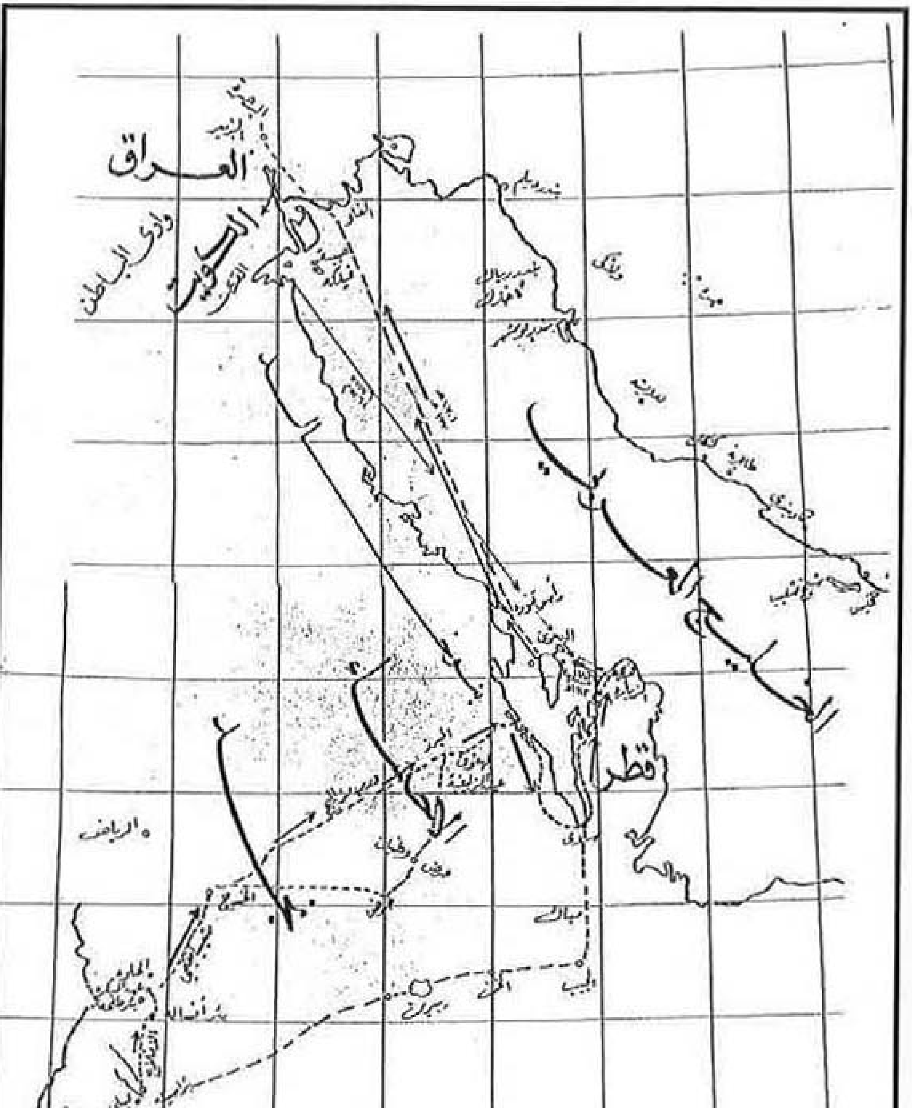
وفي رواية مرضي بن ناجي بن مرضي بن مدعث وهو من أهل المنطقة من قبيلة الدواسر، أن (جميلة) كانت تقطن الهدار والبديع والأفلاج وهي التي بنت قلعة (سلمى) بالهدار، والتي تقع في وادي الهدار الذي يقدر طوله بـ ١٥٠ كيلومتراً، وبالهدار آثار قلعة قديمة محاطة بخندق يطلق عليها اسم (صبحا) وهي التي سميت عليها قلعة (صبحا) بالزبارة والتي بناها الشيخ محمد بن خليفة الكبير وعلى نفس الأفكار وذلك في القرن الثاني عشر

الهجري . وقد بنيت قرية صبحا لتكون نقطة حصينة يصعب دخولها، حيث يحوطها خندق يملؤه الماء، كما أن عرض سورها بعرض سبعة أسوار بني من الطين والحجارة ويبلغ سمك حائط السور قرابة الأربعة الأمتار .

ولقد صممت القلعة على أن تكون قادرة على الاكتفاء الذاتي في حالة الحصار . وبها بئر ماء بالداخل ومخازن للتمور والحبوب واللحوم المجففة، ومسجد ومخازن للسلاح بالقرب منه . وجدير بالذكر أن أسماء الأماكن والحصون انتقلت من الأفلاج إلى قطر والبحرين مثل (الرفاع) و(البديع) و(صبحا) و(مرير) حيث يوجد موضع (الرفاع) في قطر وكذلك في البحرين ويوجد موضع يسمى (البدع) في قطر و(البديع) في البحرين، ومثل ذلك في الأفلاج (البديع) و (الرفاع) و (صبحـا) وهي قلعة في البديع وقلعة في الزبارة ومرير وهي عين ماء في داخل قلعة صبحا والزبارة بينما هي شعب في جنوب الهدار، موضع سكنى أجدادهم .

وقد هاجر آل خليفة وأبناء عمومتهم من هذه المناطق إلى سواحل الخليج، ومن تخلف بقي يحمل اسم (النتيفات) من بطون (عنزة)، وقد نزل (العتوب) في سلوى، التي كانت ميناء (ليبرين)، ويوجد أثر لمكان يطلق عليه (قرين بن وائل) قرب سلوى، وكان مربط خيل بني وائل . وقد تبين أن العتوب، وهم بنو وائل، قد نزلوا إلى الأحساء من وادي الهدار ثم إلى قطر ومنها إلى البحرين قبل ذهابهم إلى الكويت[٢] .

ومن الثابت أن العتوب قد دخلوا البحرين سنة ١١١٢هـ (١٧٠٠ – ١٧٠١م) ولم يستقروا فيها، وقد قدموا لها من قطر، وحصلوا على أملاك في القطيف من آل عريعر نظير مساعدتهم لهم في امتلاك القطيف[٣] . وهذا يعني أنهم نزلوا قطر سنة ١٠٨٣هـ (١٦٧١م) أثناء حكم براك بن عريعر، ومنها دخلوا البحرين وغادروها إلى البصرة ثم إلى الكويت عام (١٧٠٠م) .



خريطة توضح هجرة العتوب من نجد إلى الخليج العربي في أواخر القرن السابع عشر

وإذا حاولنا معرفة أسباب الهجرة إلى سواحل الخليج فهي تعود إلى الحروب القبلية التي ترتبط بالأمور الاقتصادية كالماء والمرعى والتي تزداد في سنين القحط وقلة الأمطار لتصبح منطقة الأفلاج الغنية بالعيون هدفاً اقتصادياً لكثير من القبائل، هذا إلى جانب الفراغ السياسي الذي خلفه البرتغاليون وراءهم بعد خروجهم من منطقة الخليج الغنية بنخيلها وأصدافها البحرية .

كل ذلك شجع بعض القبائل العربية على النزوح من نجد إلى سواحل الخليج والعراق والشام . ومن أشهر القبائل التي هاجرت إلى العراق (العمارات) و(الفدعان) لجزيرة (الفرات) و(الرولة) و(السبعة) للشام .

وقد ذكر الشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة أن ارتحال آل خليفة وآل صباح من الهدار كان بسبب نزاع نشأ في قبيلة جميلة بينهم وبين أبناء عمومتهم الذين استنجدوا بالدواسر بعد هزيمتهم فعادوا إلى الهدار مع مناصريهم من الدواسر ورحل آل خليفة وآل صباح، ولاتزال بقايا جميلة وائل تسكن الهدار مع الدواسر حتى الآن .

من كل ما تقدم فإن العتوب ومن حالفهم قد نزحوا من نجد في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) بانحدار وادي الهدار إلى الأحساء ومنها إلى قطر ثم البحرين، والغالب أنهم سلكوا طريق القوافل الذي يمر على بئر (أسيله) ثم بئر (أنساله) ومنه إلى الشمال الشرقي محازين لشعب (المقيمي) ثم إلى درب (المزاليج) باتجاه (المبرز) بالهفوف . ومن تحقيقنا لزمن نزوح العتوب ومنهم آل خليفة وآل صباح ومن والاهم وفق الأحداث التي مرت بها منطقة نزوحهم وهي الهدار، نجد أن بقربها عين تسمى (الوطأة) محيطها يزيد على ثمانمائة متر والتي قال فيها فيصل الجميلي العنزي :

لي ديرة بين (الوطاة) و(خرطم)   سقاها الحيا وابتل بالماء فرعها

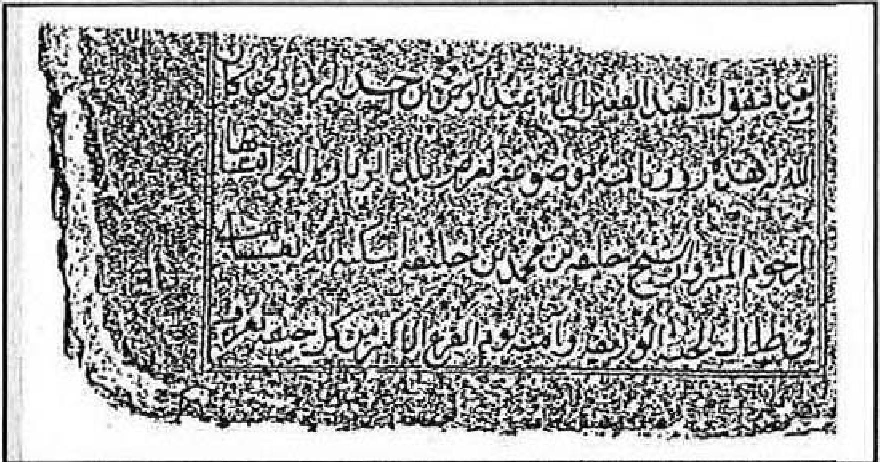
أقمنا بها (خمس وتسعين) حجة　　على ضميها واللي يجي من هيمها

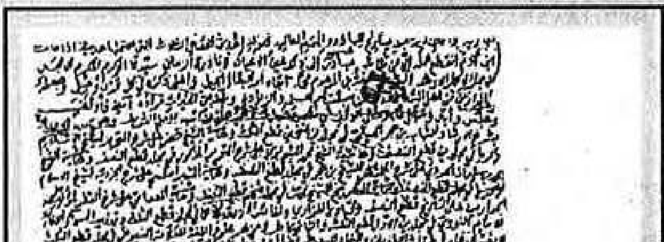
وللجميلي قصيدة طويلة فيها حنين إلى الهدار بعد أن تركها إثر حروب بين الجميليين وغيرهم بعد أن أقام الجميليون من عنزة في ديرة الهدار خمسة وتسعين سنة قبل أن ينزحوا منها في القرن الثاني عشر الهجري . فإذا علمنا من مصادر تواريخ نجد ومكة أن الشريف حسن بن أبي نمي سار إلى نجد ودخل البديع في الأفلاج، والتي فيها قصر سلمى، وغيرها من الحصون في الهدار وأخذ الضريبة من أهلها وكان ذلك حوالي ٩٨٨هـ، وقد أقام الجميلي ٩٥ حجة (سنة)، لذلك يصبح نزوح الجميليين في حوالي ١٠٨٣هـ . والراجح أن العتوب ساعدوا آل عريعر من بني خالد في احتلال الأحساء بعد ضعف النفوذ العثماني في العقد التاسع من القرن الحادي عشر الهجري وكان يحكم آل عريعر آنذاك (براك بن عريعر) وقد استولى على القطيف عام ١٠٨٣هـ (١٦٧١م) حيث قال أحد شعراء القطيف :

رأيت البدو آل حميد لمـــا　　تولوا أحدثوا في الخط ظلمـــا

أتى تاريخهم لمـا تولـــوا　　كفانا الله شرهم (طغى المـا)[٤]

ويستدل من ذلك التاريخ على تاريخ دخول العتوب إلى منطقة الأحساء ومنها إلى سلوى ثم (فريحة) شمال غربي قطر وهي ميناء مقابل للبحرين . وكانت البدع (الدوحة) في حكم (آل مسلم) وهم من بني خالد وموالين لآل عريعر . وسكناهم الفريحة سهل عليهم الاتصال بالبحرين لقرب المسافة وسهولة التنقل بدون جوازات سفر أو إجراءات جمارك مما سهل اشتغالهم بتجارة اللؤلؤ . كما أن أهل الأفلاج كغيرهم كانوا يأتون إلى سواحل الخليج العربي طلباً للرزق فيركبون الغوص وهم قد عرفوا السباحة والغوص في العيون الكثيرة في الأفلاج وما حولها، فليس ببعيد أن منهم من كان يأتي طلباً للرزق في ساحل الأحساء وجزر الخليج .





مفكرة (روزنامة) لعام ١١٩٥هـ لعرض الزبارة التي بناها الشيخ خليفة بن محمد بن خليفة

* * *

وصية أوقف فيها الشيخ خليفة بن محمد بن خليفة كتباً في مكتبة ببلدة الزبارة على طلبة العلم

نزل العتوب قرب (سلوى) في آخر البحر، وكانت ميناء، إلى (يبرين) وفيها مياه وآثار زراعة ونخيل . وهناك أثر مكان يطلق عليه (قرين وائل) قرب سلوى، وهو مربط خيل بني وائل وإن حطمه البدو في السنوات الأخيرة . ويحتمل أن العتوب، وهم من بني وائل، قد نزلوا من الأحساء عن هذه الطريق، خاصة وأن وادي الهدار ينعطف نحو الأحساء ثم إلى قطر ومنها إلى البحرين وذلك قبل ذهابهم إلى الكويت .

وقد ذكر المؤرخ (ديكسون) أن العتوب، بعد هجرتهم من الأفلاج، استقروا في قطر ومنها تفرقوا بين سواحل الخليج ثم اجتمعوا مرة أخرى في الكويت ولكنه لم يذكر تاريخ ذلك . أما (واردن)، الذي كان وقتئذ موظفاً في (بومباي)، فقد ذكر أن أجداد آل خليفة وآل صباح دخلوا الكويت عام ١٧١٦م الموافق ١١٢٩هـ بعد مكوثهم في قطر خمسين عاماً قبل ذلك التاريخ ويعني ذلك هجرتهم من الأفلاج عام ١٠٧١هـ (١٦٦٦م) . إلا أن واردن لم يستند في ذلك على وثائق مخطوطة(٥) .

وإذا حاولنا التعرف على الأحوال الاجتماعية التي كانت سائدة في نجد في فترة نزوح آل خليفة ونزوح بعض بطون وأفخاذ وأسر القبائل من نجد إلى أطرافها لرأينا أن أسباباً تضافرت مع بعضها البعض فأدت إلى نزوح القبائل العربية إلى سواحل الخليج . فقد شهدت هذه الفترة، خاصة القرن السابع عشر، خروج البرتغاليين وانسحابهم من سواحل الخليج العربي ما أتاح الفرصة أمام بعض التجمعات القبلية للهجرة من مواطنها في شبه الجزيرة العربية متجهة نحو الساحل الغربي للخليج العربي، خاصة إذا علمنا أن سمة الحياة القبلية قوامها الترحال طلباً للرزق إلى المناطق ذات المرعى أو الزراعة والمياه

الوفيرة والنشاط التجاري . وتلك سمة من سمات الحياة القبلية في الصحراء منذ القدم .

وقد اندفعت بعض القبائل نحو سواحل الخليج العربي طلباً للخيرات كاللؤلؤ والأسماك وما تجلبه السفن من تجارة تأتيها من البلاد القاصية والدانية . وإذا أضفنا ما تعرضت له قبيلة (عنزة) التي منها (بني عتبة) من قحط شديد في أواخر القرن السابع عشر مما أدى إلى قلة الخيرات بالنسبة لعدد القبائل، فقد حدث قحط عظيم يسمى (صلهام) هلك فيه عدد كبير من الناس والدواب، وذلك في (وادي عدوان) واستمر من سنة ١٠٧٦ إلى ١٠٧٨هـ (١٦٦٥ـ ١٦٦٧م) .

وهكذا فإنه نتيجة لتتالي القحط والأوبئة في أواخر القرن الحادي عشر أصبحت البلاد في ضائقة اقتصادية وهلك الكثير من الناس بسبب القحط ونشبت الحروب بين القبائل للتنازع على البقاء لقلة خيرات البلاد نتيجة لتعرضها للكوارث الطبيعية المتتالية . وهنا ينطبق عليهم قول أحد أدباء سدير في قصيدة منها :

غدا الناس أثلاثاً فثلث شريدة　　　يلاوي صليب البين عارٍ وجائع

وثلث إلى بطن الثرى دفن ميت　　　وثلث إلى الأرياف جال وناجع(٥)

كل هذه الأسباب دفعت بعض القبائل إلى الهجرة صوب مناطق غنية بالخيرات كالعراق والحسا وسواحل الخليج .

أما عن الأحوال الاقتصادية والسياسية للمنطقة في ذلك التاريخ، فقد وجدنا أن هناك ثلاث قوىً تتنازع السيطرة على ثروات الخليج وهي :

١ ـ القوى الأوروبية

٢ — عمـــان

٣ — الفرس

أما العثمانيون فقد كان نفوذهم ضعيفاً في تلك الفترة مما شجع ظهور قوة القبائل العربية في تلك المنطقة ومنها (العتوب) .


دفتر مهمه رقم ١١١ صفحه ٧١٢
٢١ رجب

أقدم وثيقة عثمانية لدخول العتوب للبحرين بتاريخ ٢١ رجب ١١١٣هـ/١٧٠١م

القوى الأوروبية

كانت الأحوال السياسية في الفترة ما بين ١١١٢ – ١١١٣هـ (١٧٠٠ – ١٧٠١م)، والتي ذكرتها المخطوطات والوثائق العثمانية تشير إلى تصارع القوى الخارجية فيما بينها مما سهل دخول العتوب للمنطقة واستقرارهم فيها . فبعد انحسار النفوذ البرتغالي، برزت القوة البريطانية والهولندية للسيطرة على التجارة في الخليج – أي أنه – مع بداية القرن الثامن عشر لم يبق أي نفوذ للبرتغاليين، إلا أن الفوضى التي عمت إيران آنذاك أدت إلى تعرض مصالح البريطانيين والهولنديين والفرنسيين للخطر، فانشغلوا بالدفاع عنها مما هيأ الجو لاستقرار العتوب في المنطقة ومحاولة الحصول على مناطق يبسطون عليها نفوذهم اقتصادياً وسياسياً .

الأحوال السياسية في عمان

في عهد السلطان سيف بن سلطان (١١٩٢ إلى ١٧١١م) بلغت عمان قمة عظمتها فكان لها أسطول بحري قوي مجهز بالأسلحة الثقيلة حتى بلغ تسليح إحدى سفنه ثمانين مدفعاً وامتد نفوذ عمان إلى الساحل الشرقي لشبه الجزيرة الهندية وكذلك شرقي أفريقيا وانشغلت بذلك عن الخليج، ومنحت المجال للقبائل العربية ومنهم العتوب على سواحل الخليج، لتمارس التجارة والنقل، وأصبح للعتوب أسطولهم المجهز بجميع وسائل الدفاع وسهل لهم عملية الانتقال من قطر إلى البحرين ثم إلى البصرة [٤] .

الأحوال السياسية في إيران

كانت الدولة الصفوية بإيران في آخر عهدها بعد أن تولى الشاه سلطان حسين بن سليمان من ١٦٩٤ إلى ١٧١٣م بعد آخر ملوك الدولة الصفوية، وقد انهارت الدولة الصفوية بأسباب منها ازدياد قوة الأفغان الذين سيطروا على قندهار ومن بعدها وصلوا إلى العاصمة الإيرانية طهران . أما في مجال العلاقات الخارجية فقد وقع الشاه سلطان حسين (فرماناً) عام ١٦٩٧م حيث أعطى بموجبه الإنجليز امتيازات في التجارة والإعفاء من الضرائب، ونافسهم الهولنديون إلا أن الغلبة كانت للإنجليز، وتمكنت شركة الهند الشرقية من الدخول في مشروعات خاصة بها في إيران وعارضها الإيرانيون الأرمن حول تصدير الحرير والصوف مما شغل حكومة الشاه سلطان حسين عن أطماعها الخارجية . وأدى ذلك إلى تحرير البحرين من النفوذ الأجنبي بدخول أحمد الفاتح .

الأحوال السياسية في البصرة

لم تكن الأحوال السياسية في البصرة في أواخر القرن السابع عشر الميلادي أحسن مما كانت عليه في إيران، حيث شهدت كثيراً من الاضطرابات وانتشر فيها وباء الطاعون (١٦٨٩م)، فهاجر منها الكثيرون وشهدت خراباً دام أكثر من قرن ونصف القرن، وكانت تحت الحكم العثماني، بولاية الوالي (علي باشا)[٦] الذي ساعده والي بغداد (مصطفى باشا) بعد أن كثرت عليه الفتن بقوة من أكثر من مائتي ألف مقاتل تمكنت من بسط السيطرة العثمانية على البصرة، وذلك ما حدا بالعتوب للقدوم إلى البصرة لطلب المساعدة من الدولة العثمانية[٧]

الأحوال السياسية في الأحساء

كانت الأحساء آنذاك تحت الحكم العثماني اسمياً، أما الحكام الفعليون فقد كانوا من آل عريعر بزعامة (براك بن عريعر) من آل حميد من بني خالد، الذي احتل القطيف وخلفه أخوه (محمد) الذي وسع نفوذ بني خالد إلى خارج حدود الأحساء، وخلفه (سعدون)، وبعدها بدأت الخلافات الأسرية تضعف من نفوذهم منذ العقود الأولى من القرن الثامن عشر الميلادي مما سهل للقبائل العربية الأخرى، ومنها العتوب، الانفراد بالسيطرة على المناطق التي تقطنها [٨]. وقد عمت الاضطرابات جميع سواحل الخليج نتيجة للصراع بين القوى البرتغالية والعثمانية والفارسية، وكان البرتغاليون في آخر عهدهم كقوة مؤثرة في المنطقة قد انسحبوا، كما كانت الدولة العثمانية، بسبب افتقارها لأسطول قوي، غير قادرة على بسط نفوذها وفي حالة حرب مستمرة مع الفرس الذين لم يكونوا بأحسن حال من العثمانيين، أي أنه لم تكن هناك قوة من تلك القوى الثلاث قادرة على بسط نفوذها على الخليج . كما كان العمانيون مشغولين بفتوحاتهم بشرق أفريقيا وملاحقتهم للبرتغاليين، وقد هاجرت بعض القبائل العربية من الساحل الغربي للخليج إلى الساحل الإيراني ويدعون بـ (الحوله) واستقروا هناك ليشتغلوا بالغوص والتجارة ونافسوا عرب الساحل الغربي اقتصادياً مما سهل للعجم إثارة الفتنة بينهم .

وإذا حاولنا معرفة نسب آل خليفة فهم ينتسبون إلى قبيلة عنزه، أما تسميتهم بـ (العتوب) أو (بني عتبة) فذلك يعني حلفاً مكوناً من عدد من بطون وأفخاذ القبائل من ضمنهم (عنزه) .

أما عن تاريخ دخول العتوب إلى البحرين فهناك مخطوط بعنوان (لؤلؤتي البحرين) من تأليف يوسف بن أحمد الدرازي ذكر فيه بيتاً من الشعر يؤرخ فيه (وقعة) كان العتوب طرفاً فيها حيث قال :

قضيـــة القبيلـــة المعتديـــة   وعام تلك (شتتوها) فاحسبه

وإذا رجعنا لحساب كلمة (شتتوها) نجد :

(ش = ٣٠٠) و(ت = ٤٠٠) + ت = ٤٠٠ و (و = ٦) + (هـ = ٥) + (ا = ١) فالمجموع ١١١٢هجري الموافق ١٧٠٠ ميلادي[٩] . ويؤكد تلك الحقيقة التاريخية وثيقة عثمانية مؤرخة في ٢١ رجب ١١١٣هـ الموافق ٢٣ ديسمبر ١٧٠٠١م وهي عبارة عن رسالة أرسلها والي البصرة (علي باشا) للسلطان العثماني في اسطنبول تذكر تواجد العتوب في البحرين آنذاك .

من كل ماتقدم يمكن أن نستخلص ما يلي :

أن دخول العتوب الأول للبحرين كان في بداية القــرن الثامن عشر الميلادي . وأن العتوب استقروا في قطر قبل ذلك بحوالي ٣٣ سنة وهي فترة كافية كي يتعودوا ركوب البحر ويبنوا السفن الكبيرة القادرة على المواجهة الحربية . كما أن الوثيقة العثمانية تذكر أن قوة العتوب الحربية البحرية كانت قوة لا يستهان بها في الخليج . فقد كانت سفنهم مزودة بالمدافع والبنادق، وكانت تلك الأسلحة تعتبر حديثة في نوعها، وأنهم اشتركوا في معركة بحرية في رأس تنورة ضد عرب الحولة كما ذكر الدرازي ولم تحالفهم الظروف فيها، وتوجهوا بعدها إلى البصرة على ظهر مائة وخمسين سفينة مزودة بالمدافع وعلى ظهر كل سفينة نحو أربعين مسلحاً بالبنادق وتحمل مدفعين أو ثلاثة مدافع، وكان عددهم يزيد على الألفين . وطلبوا من والي البصرة العثماني (علي باشا)

تحديد مكان لإقامتهم، ولقد رحب بهم والي البصرة وأرسل كتاباً إلى الباب العالي ذكر فيه عن خبرتهم في ركوب البحر والتجارة والغوص في مياه الخليج وعن قوتهم وصراعهم مع الدولة الفارسية . وبعدها حدد ميناء أم قصر كأول منزل لهم، ثم توجهوا بعد ذلك إلى (الكوت)، وهو حصن لابن عريعر من بني خالد حاكم الأحساء والقطيف آنذاك، وقد بناه مستودعاً ومركزاً حدودياً يحمي حكمه من جهة الشمال، وقد وهبه ابن عريعر للعتوب ليستقروا فيه وكان ذلك في العقد الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، أي ما يعادل العقد الثاني من القرن الثاني عشر الهجري .

(الشيخ خليفة بن محمد المتوفى عام ١١٢٠هـ /١٧٠٨م) وهو الجد الأكبر لأسرة آل خليفة وكان صاحب الرأي في قومه في الهدار والأفلاج في نجد لما عرف عنه من أصالة الرأي والحزم . وظعن مع قومه في أواخر القرن الحادي عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، صوب الخليج العربي، وكانت لهم عدة بطون وأفخاذ من القبائل العربية، اجتمعوا في حلف واحد بعد أن جمعهم هدف واحد، وتصاهروا ليطلق عليهم اسم (العتوب)، وهي كلمة مشتقة من (عتب) بمعنى ارتحل . وأصبح الفرد منهم ينهي اسمه بكلمة (العتبي) وقد شارك الشيخ خليفة في الرحلة إلى قطر، وهناك انضم إليهم أقوام شملتهم العتبية ثم دخلوا البحرين ثم البصرة ومنها إلى أم قصر فالكويت بعد عام١٧٠١م . وبعد أن استقر الشيخ خليفة الكبير في الكويت اهتم بالتجارة فزادت ثروته وبنى مسجداً مازال قائماً حتى اليوم بمسمى (مسجد آل خليفة) . وقد أوقف على المسجد قسماً من النخل الذي يملكه في القطيف . وبعد وفاته في الكويت خلفه أخوه الشيخ محمد بن خليفه .

الشيخ محمد بن خليفة

ألمتوفى عام ١١٨٦هـ/١٧٧٢م

وهو ثاني شيوخ آل خليفة، خلف أباه وهو شاب، وزوّجه عمه الشيخ صباح بن جابر ابنته (مريم) التي أنجبت له الشيخ (خليفة)، وذلك يدل على أن الشيخ محمد بن خليفة قد تزوج بعد وفاة أبيه حيث جرت العادة بعدم تسمية الإبن باسم جده إلا بعد وفاة الجد . ثم تزوج الشيخ محمد بن خليفة بزوجته الثانية من (آل بنعلي) وأنجبت له الشيخ (أحمد) الذي لقب بـ (الفاتح) ومقرن، وبعد رحيله للزبارة تزوج الزوجة الثالثة من (آل بوكوارة) التي أنجبت له ابنيه علي وإبراهيم .

وجدير بالذكر بأننا لا نؤيد أن الكويت تأسست سنة ١١٢٥هـ /١٧١٣م، أو أن العتوب سكنوا الكويت سنة ١١٢٨هـ / ١٧١٦م، وذلك لأن بعض الوثائق العثمانية تذكر الكويت في عام ١١١٣هـ / ١٧٠١م، ووثيقة تثبت أن أول قاضٍ في الكويت هو الشيخ (محمد بن فيروز) المتوفى ١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م، فلابد أن الكويت قد اتسعت لتزايد عمرانها وزاد عدد سكانها مع مرور الزمن نظراً لما تتميز به من ميزات هي ميناؤها الممتاز لرسو السفن وموقعها التجاري وقربها من مغاصات اللؤلؤ، فاجتمعت كلمة العتوب على اختيار الشيخ (صباح بن جابر) حاكماً عليهم . والشيخ محمد بن فيروز قاض فيها وهذا يدل على أن المدينة تأسست منذ مدة من الزمن . ونحن نرى أن تأسيسها كان بعد ١١١٣هـ بقليل . وبمرور الوقت اتسعت الكويت وزاد عمرانها .

وفي تقرير لمدير شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٧٥٦م / ١١٧٠هـ يقول : أن للعتوب عدة شيوخ يعيشون في الكويت في وئام وأهمهم الشيخ مبارك بن صباح والشيخ محمد بن خليفة، وهو رجل غني يملك سفناً كثيرة ويتمتع

باحترام الجميع، وكانت سفنه تصل إلى قطر حيث سكنوها فترة من الزمن قبيل سكناهم الكويت، وذلك بعد أن نزحوا من مرابعهم في الهدار فقد عرفوها قبل نحو نصف قرن كما عرفوا البحرين منذ ١١١٢هـ /١٧٠٠م . وجدير بالذكر أن آل بنعلي، وهم قسم من العتوب وأخوال الشيخ (أحمد الفاتح)، هاجروا من الكويت إلى (فريحه) في قطر عام ١١٤٥هـ /١٧٣٢م . وكان التنقل ميسوراً حيث لم تكن هناك جوازات سفر وإنما كانت هناك (عشور) على التجارة وهي نوع من الضرائب[١٠] .

وفي زمن الشيخ عبد الله بن صباح نزح الشيخ محمد بن خليفة ومن والاه إلى الزبارة وكان ذلك في حوالي عام ١١٧٦هـ /١٧٦٢م لأسباب تضافرت مع بعضها بسبب خلاف حول تسليم أحد أبناء الشيخ محمد إلى بني كعب لتأخذ بثأر قتيلها الذي قتله أبناء الشيخ محمد دفاعاً عن النفس حين هاجمهم جماعة من قطاع الطرق وسط النهر . وقد عرض الشيخ محمد (الدية) بدل تسليم أحد أبنائه ولم يتحقق له ذلك فهاجر وأبناؤه ومن آزره من العتوب إلى الزبارة التي تقع على ساحل قطر الشمالي . ومعنى الزبارة من (الزبر) أي وضع الحجر فوق بعضه . ويطلق على المنطقة المرتفعة أو التلة الصغيرة . وتم اختيار الزبارة كموضع للسكن لقربه من الساحل والماء والمراعي والحطب .

ويعتبر الشيخ محمد بن خليفة هو المؤسس الأول للزبارة حيث لم يرد ذكرها من قبل سكنه فيها وبناء حصنه (صبحا)، ولم يذكر الرحالة (نيبور) الزبارة ولم يصفها في خريطته التي رسمها عام ١٧٦٥م لأنها لم تعرف حينئذ وإنما أشار نيبور في خريطته إلى (القرين) وإلى (فريحة) وهي قرية ساحلية غرب الزبارة التي تأسست في عام ١١٧٦هـ /١٧٦٢م .

وأتم الشيخ محمد بن خليفة بناء قلعة صبحا والتي أخذ اسمها من اسم قلعة الهدار، وسميت (مرين) نسبة للماء الذي بنيت حوله وقد أرخت بجملة :

٨٤٠ ٧٩ ١٣٢ ٦٦ ٦٥

تمت بعز وعون الله حاميها = ١١٨٢هـ الموافق لسنة ١٧٦٨م .

ونرجح تأسيس مدينة الزبارة على يد الشيخ محمد بن خليفة كما أوردنا في عام ١١٧٦هـ/١٧٦٢م لأن الشيخ محمد بن خليفة عندما انتقل من الكويت إلى الزبارة، تزوج من آل بوكوارة وأنجب من زوجته هذه ولديه علي وإبراهيم . ونجد أن علياً اشترك في معركة الزبارة وفتح البحرين في ١١٩٧هـ/١٧٨٣م وعمره وقتئذ حوالي ٢١ عاماً وهو شاب يستطيع حمل السلاح والاشتراك في المعركة . أما من يعتبر أن هجرة الشيخ محمد بن خليفة إلى الزبارة وتأسيسه لها في عام ١١٨٠هـ/١٧٦٦م فتنقصه الدقة في التوقيت إذ يصبح عمر علي بن محمد بن خليفة في وقت اشتراكه في المعركة نحو ١٦ سنة وهذا غير معقول لصغر سنه .

وازدهرت الزبارة منذ أسسها الشيخ محمد بن خليفة وكان من أول الأمر يدفع رسوماً لـ (آل مسلم)، ولكنه بعد بنائه قلعة (صبحـــا) امتنع ومن والاه من قبائل قطر عن دفع الرسوم لـ (المسلمي) مما أدى إلى نشوب معركة (السميسمة) التي انهزم فيها المسلمي وأفل نجم (الحويلة) مركز نفوذ آل مسلم آنذاك .

الشيخ خليفة بن محمد بن خليفة
المتوفى عان ١١٩٧هـ /١٧٨٣م

بعد وفاة الشيخ محمد بن خليفة عام ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م، خلفه ابنه الأكبر خليفة وكان تقياً إذ تفقه بفقه الإمام مالك كما كان أديباً شاعراً ازدهرت الزبارة في عهده واتسعت رقعتها وعمرت اقتصادياً لعدم فرض الضرائب على السلع التجارية فأصبحت مركز جذب لكثير من التجار والمهاجرين ولقربها من مصائد اللؤلؤ نافست البحرين في تلك التجارة الرابحة في ذلك الوقت وأصبحت مركزاً هاماً لصيد اللؤلؤ وتوزيعه، فهاجر إليها الكثير من تجار البصرة وعلمائها وأدبائها خاصة بعد تعرض البصرة لوباء (الطاعون) حتى قيل (خراب البصرة .. عمار الزبارة) . وتم بناء الكثير من المساجد والمدارس والأسواق في الزبارة . وقد أرخ (لوريمر) ذلك الحدث لعام ١٧٧٣م .

وممن هاجر من العلماء والأدباء إلى الزبارة بكر بن أحمد البصري الزباري المتوفى ١٢٠٢هـ ومعاصره أحمد بن درويش العباسي ومحمد بن عبد اللطيف الشافعي الأحسائي وابنه عبد الله ومحمد بن فيروز والبيتوشي والعتيقي والهجري والطباطبائي وابن جامع وآخرون غيرهم . ومما يدل على نشاط الحركة الأدبية والعلمية بالزبارة وثيقة تشير إلى وقفية (كتب) أوقفها الشيخ خليفة بن محمد بن خليفة في مكتبة الزبارة على طلبة العلم بتاريخ ٢٤ رجب ١١٩٥هـ الموافق ١٨ يوليو ١٧٨١م[١١] .

وكذلك الروزنامة (التقويم) الذي كتبه عبد الرحمن بن أحمد الزواوي الموضوع لعرض بلدة الزبارة التي بناها الشيخ خليفة بن محمد بن خليفة على حد قول الزواوي مما يثبت هذه الحقيقة التاريخية .

كما ساعد على ازدهار الزبارة ظهور حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية في نجد . كما أن الخلافات الأسرية بين آل عريعر أدت إلى ضعفهم بالأحساء، ونتج عن كل ذلك عدم الاستقرار واضطراب للأمن مما دفع بالكثير من سكان نجد والأحساء للرحيل والاستقرار بالزبارة خاصة التجار والعلماء .

وفي فترة ازدهار الزبارة شهدت المنطقة حدوث قحط وغلاء، ففي سنة ١٧٦٧م ارتفعت الأثمان وشح الزاد في البلدان واستمر الغلاء في السنة التي تلتها، وسمي القحط والغلاء العظيم (سوقه) مات فيه خلائق كثيرون وجلا كثير من أهل المناطق المجاورة نحو الزبارة والأحساء وغيرهما . وفي ١٧٨٢م حدث وباء وحروب وقحط وغلاء يسمى (دولاب) استمر ثلاث سنين فكانت الزبارة موضع جذب[١٢] .

ومما ساعد في تقدم الزبارة وتنامي ثروة سكانها التجارة الحرة الخالية من القيود والضرائب وقربها من مصائد اللؤلؤ ومغاصاته، فأصبحت الزبارة منطقة تجارة حرة، مما شجع الكثيرين من التجار، بمن فيهم تجار البحرين، واحتدت المنافسة بين الزبارة والبحرين التي كانت آنذاك تحت حكم آل مذكور وبدعم من حاكم أصفهان (علي مراد خان) . وبدأت الخلافات تظهر بين حكام البحرين وحكام الزبارة والتي تعود في أساسها إلى أسباب اقتصادية إذ أثر نماء الزبارة على موارد البحرين من التجارة وخاصة تجارة اللؤلؤ . وبدأ الشيخ نصر آل مذكور يعمل على إضعاف التحالف بين الكويت والزبارة ليتفرغ لغزو الزبارة وكتب إلى (شيخ القرين) يطلب الصلح ولم يتحقق له ذلك حيث اشترط شيخ القرين على الشيخ نصر آل مذكور شروطاً تعجيزية من ضمنها نصف دخل البحرين وقسم كبير من دخل بوشهر .

ويذكر (لوريمر) بأن حاكم أصفهان أمر المتولي على البحرين نصر آل مذكور بمحاصرة الزبارة وكان ذلك في أواخر عام ١١٩٦هـ / ١٧٨٢م . وفي تلك الفترة كان الشيخ خليفة بن محمد بن خليفة في مكة للحج، ويقوم مكانه أخوه الشيخ أحمد بن محمد بن خليفة .

وقد توفى الشيخ خليفة في الحج ودفن بمكة عام ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م وخلفه أخوه الشيخ أحمد . وقد جهز نصر آل مذكور حملة من ألفي مسلح – وقيل أربعة آلاف – وقادهـا بنفسه في معركة انتهت بهزيمته وفتح البحرين .

الهوامش

١ – الهمداني .

٢ – الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة – الوثيقة, العدد ٨٦/١ .

٣ – عبد الله بن خالد، الوثيقة ١ – ٨٦ .

٤ – طغى الماء = ١٠٨٢هـ (١٦٧١م) وبحساب الجمل ط = ٩ + غ = ١٠٠٠ + م = ٤٠ + آ = ١ المجموع = ١٠٨٢ .

أنظر : الوثيقة ١ / ٩٤ و٩٥، الكويت وجيرانها، ص٩٩ – ١٠٠ ؛ تاريخ الكويت ١٦/١/ لوريمر، دليل الخليج ١١٩٥/٣ ؛ د. عبد العزيز المنصور، التطور السياسي لقطر ص١٥٨ ؛ تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص١٢٦ و١٢٧، الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة، الوثيقة ٨٦/١ .

٥– تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص٦١ و٩٦، الوثيقة ٩٠/١، دراسات في تاريخ الخليج العربي، ص٦٣ ؛ عبد الله الحاتم، خيار ما يلتقط من الشعر النبط، ص٢٢٨ .

٥ – د. العابد، دور القواسم في الخليج العربي، ص٢٠ ؛ دراسات في تاريخ الخليج العربي، ص٣٧، الوثيقة ٩٨/١ ؛ ووثيقة عثمانية رقم ١١١، ص٧١٣ .

٦ – تولى علي باشا ولاية البصرة عام ١٦٩٩م .

٧ – ابن بشر، عنوان المجد ١٠٢/١ ؛ ودليل الخليج ١٧٧٣/٤ ؛ والوثيقة ١٠٠/١ ؛ والتحفة النبهانية ٤٥ و٥٥ و٢٨١ ؛ والعمري، الدر المكنون، ص٣١٤ و٣١٥ (مخطوط) .

٨ – الأحسائي، تحفة المستفيد ١٢٣/١ و١٢٤ ؛ والتطور السياسي لقطر، ص١٣٣ ؛ وعنوان المجد ٢٥/١ ؛ وتاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، ص٤٧ و٤٨ ؛ والوثيقة ١٠١/١ . وقد أرخ أحد أدباء نجد زوال ولاية آل عريعر (آل حميد) عن الحسا والقطيف بقوله :

وتاريخ الزوال أتى طباقا (وغار) إذ انتهى الأجل المسمى

وبحساب الجمل لكلمة (وغار) : و = ٦ + غ = ١٠٠٠ + آ = ١ + ر = ٢٠٠ المجموع = ١٢٠٧هـ الموافق ١٧٩٥ وهي سنة زوال حكمهم .

٩ – لؤلؤتي البحرين : مخطوط في البحرين ونسخه في المكتبة السليمانية باسطنبول، ورقة ٢٤١ و٢٤٢ .

١٠ – التحفة النبهانية ١٢٨ ؛ والشيخ عبد الله بن خالد، الوثيقة ١٧/٤ .

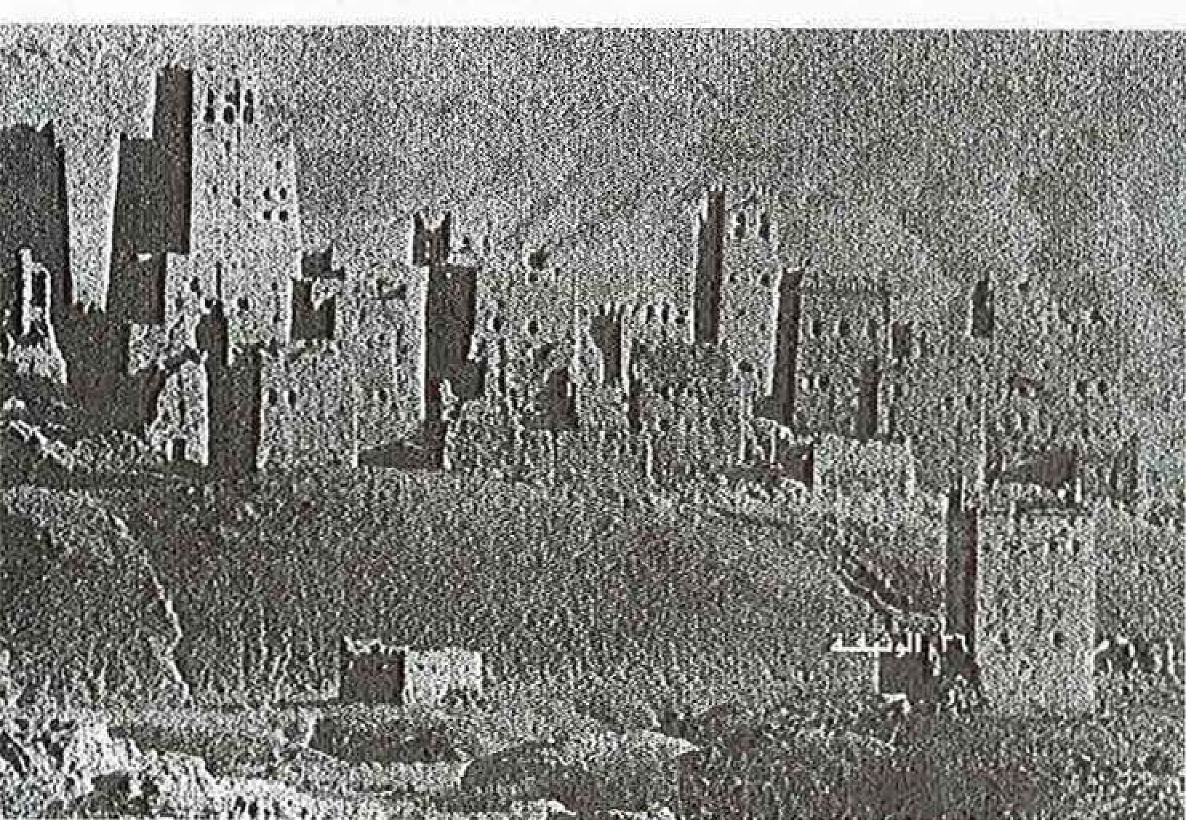
١١ – تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، ص٩٥ و١١٣ و١٢١ ؛ وتاريخ نجد ٧٦/٢ و٧٧ ؛ والوثيقة ٢٠/٤ .

١٢ – تقرير من لاتوش المقيم التجاري في البصرة رقم ٢٩/٢١ مجلد ١٧، رقم الإرسال ١٢٣٠/ الوثيقة ٢١/٤ .

أوضاع ذمار..

أثناء الصراع السبئي الحميري .. في

تشير الدراسات النقشية إلى أن المنطقة الممتدة من جنوب (ذمار القرن) جنوباً إلى أسفل نقيل يسلح شمالاً، و(بينون) في مديرية الحداء شرقاً و(مصنعة مارية) غرباً، قد شهدت صراعاً محتدماً ومعارك ضارية بين ملوك (سبأ) وملوك (حمير/الريدانيين)

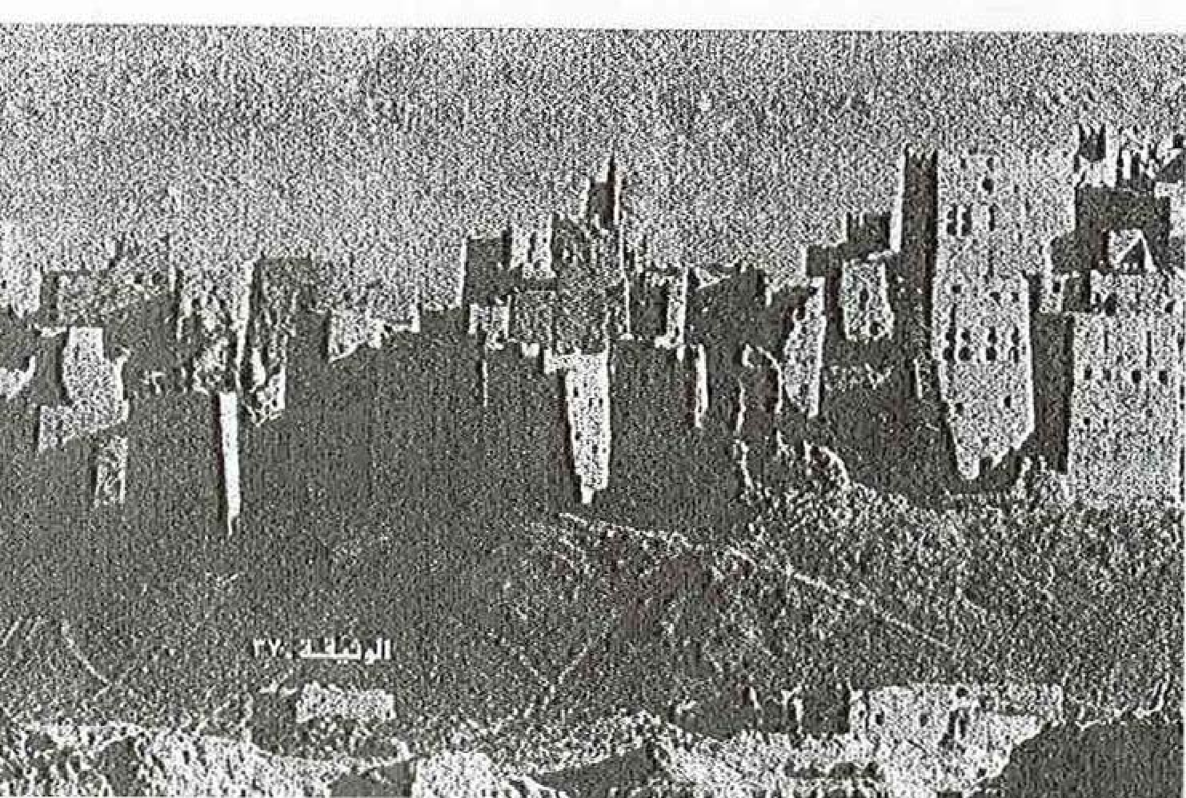


والقبائل المحيطة بها

النصف الأول من القرن الثالث الميلادي

بقلم :
الدكتور أحمد
صالح العبادي

وذلك منذ مطلع القرن الثالث الميلادي حتى أوائل النصف الثاني من القرن نفسه، وكانت ذمار والقبائل المحيطة بها المتحالفة مع الحميريين آنذاك مسرحا لذلك الصراع الذي طال أمده وترك آثاره الموجعة على تلك القبائل التي عانت ويلات ذلك الصراع .



وقد هدفت هذه الدراسة إلى إبراز ذلك الصراع ودور (ذمار) والقبائل المحيطة بها في أحداث فصوله خلال الحقبة المذكورة، ومن ثم معرفة أحوال تلك القبائل والآثار التي انعكست عليها جراء ذلك الصراع .

وقبل الخوض في هذا الموضوع ارتأى الباحث أن يقدم للقارئ تعريفاً بمدينه (ذمار) القديمة (ذمار القرن) ومنازل القبائل المحيطة بها والقريبة منها ومن ثم السير في استعراض حلقات الصراع السبئي — الحميري خلال الحقبة المذكورة .

وقد استعمل الباحث المنهج التاريخي الوصفي القائم على وصف الأحداث وتحليل الوقائع ومقارنتها ونقدها ومحاولة الوصول إلى الآراء والمعارف الأقرب إلى الصواب وذلك من خلال تتبع النقوش التي أوردت أنباء ذلك الصراع لا سيما مجموعة نقوش (البرت جام) :

Sabaean Inscriptions From Mahram Bilqis (Marib) (J a)

ومجموعة النقوش التي نشرها الأستاذ/ مطهر الإرياني في كتابه (نقوش مسندية وتعليقات) فضلاً عن دراسات نقشية وتاريخية أخرى أفاد منها الباحث، وقد أشار أليها في موضعها .

وتبين من خلال البحث أن ذلك الصراع وما تضمنه من معارك شديدة الضراوة بين الجانبين المتصارعين السبئي والحميري، قد كلف (ذمار) والقبائل المحيطة بها ثمناً باهضاً وأنزل بها خسائر فادحة في الأرواح والأموال، وأحل بكثير من مواضعها الدمار والخراب وانتشرت فيها الأمراض والأوبئة وفتكت بأهلها المجاعات، وحل الهلاك بالمزارع والحقول، إذ ردمت الآبار وقنوات الري الزراعية وخربت المدن وقتلت أعداد غير قليلة من رجالها فضلاً عن الأسرى والسبايا، ونهبت أموالها وماشيتها وممتلكاتها النفيسة والرخيصة .

وعاش أهلها حالة نفسية قلقة مضطربة بدليل ما نجده في النقوش من توسلات وتضرعات للآلهة تدعوها بأن تمن على عبيدها بنعمة الطمأنينة والاستقرار والهدوء والسكينة .

تسمية ذمار

ذمار بفتح أوله وثانيه والراء المهملة مكسورة، اسم مبني وهي مدينة معروفة باليمن، وقيل إن كلمة (ذمار) اسم لـ (صنعاء)، وصنعاء كلمة حبشية بمعنى (حصين وثيق) أطلقها الأحباش على (صنعاء) عندما رأوها عند قدومهم إلى اليمن مع (أبرهة) و(أرياط)[١] .

ويذكر (ياقوت الحموي)[٢] أن (ذمار) مسماة بذمار بن يحيى بن يحصب بن دهمان بن سعيد بن عدي بن مالك بن سدد بن حمير بن سبأ، وذمار قرية جامعة بها زروع وآبار قريبة ينال ماؤها باليد ويسكنها بطون من حمير[٣] .

وقد فسر لنا (ابن منظور)[٤] معنى كلمة (ذمار) بقوله: والذمار ذمار الرجل، وهو كل ما يلزمه حفظه وحياطته وحمايته والدفاع عنه وإن ضيعه لزمه اللوم ... ويقال الذمار ما وراء الرجل مما يحق عليه أن يحميه لأنهم قالوا حامي الذمار، كما قالوا حامي الحقيقة وسمي ذماراً لأنه يجب على أهله التذمر له وسميت حقيقة لأنه يحق على أهلها الدفاع عنها .. وذمار نسبة إلى ذمار بن دهمان أحد أقيال حمير[٥] .

"وهي المدينة الفيحاء، واليتيمة العصماء، ذات الوجه البهي، والهواء النقي، جميلة المنظر، حسنة المخبر، صافية الأديم، نزهة عذبة المياه، من أمهات اليمن التي تلحق بالعاصمة صنعاء ... وكانت مملكة باذخة، وغرّة شامخة، كما جاء في المسند: لمن ملك ذمار؟ لحمير الأخيار ....الخ، أطلقت على قُطر اليمن كاملاً، كما أنها همزة وصل بين مشرق اليمن ومغربه وشماله

وجنوبه، فهي أشبه ما تكون في قلب اليمن، وتبعد عن صنعاء جنوباً بثلاث مراحل لطاف، وتقع في فضاء واسع، عامر بالسكان، آهلة بالعلم والعرفان وموئل للأدباء وذي اللسن، ولايزال فيها علماء وحملة أقلام، ورواة شعر وقراء ومحدثون، وتجار أبرار"[٦] .

ويذكر الهمداني[٧] "... وأولاد يحصب بن دهمان: بولس وجهران وذمار، وبه سميت ذمار"

أما القول بأن (ذمار) سميت بذلك الاسم نسبة إلى الملك (ذمار علي) ففيه شيء من الصحة ولكن هناك عدد من الملوك السبئيين والحميريين الذي حملوا ذلك الاسم، نذكر منهم: في العهد السبئي:

١. ذمار علي وتر يهنعم (ذمار علي ينف)

٢. ذمار علي بيَن

٣. ذمار علي ذرح

٤. ذمار علي يهبر (يهبأر) في العهد الحميري / عهد ذي ريدان[٨] .

فإلى أي من أولئك الملوك يمكننا أن ننسب تسمية مدينة (ذمار) ؟

يبدو للباحث أن مدينة (ذمار) سميت بذلك نسبة إلى المكرب السبئي (ذمار على وتر يهنعم) لاسيما أن بعض الدراسات قد توصلت إلى أنه أقدم ملوك سبأ وذي ريدان المعروفين، وأن ارض الكيان السبئي كانت في زمانه تشمل كل الهضبة الغربية تقريباً، بدليل أن أرض قبيلة (مقرى) الواقعة غرب مدينة (ذمار) كانت تابعةً له، وأن سبأ كانت تهيمن دون منازع على كل الهضبة الغربية[٩]، بضمنها (ذمار) الحالية وما حولها، وقد أرجع بعض المؤرخين مدة حكم المكرب السبئي (ذمار على وتر يهنعم) أو (ذمار علي ينف) إلى حوالي (٦٨٠) ق.م[١٠] .

وقد ورد اسم (ذمار) في النقوش السبئيه والحميرية بـ (ذمار/ذمري)، على سبيل المثال (Ja:576) و(Ja:577) التي ذكرت مدينتي (ذمار) و(هرَان) في أكثر من موضع، أثناء الصراع السبئي ـ الحميري، الذي سيأتي الحديث عنه لاحقاً .

موقع مدينة (ذمار) القديمة

تقع مدينة (ذمـــار) إلى الجنوب من العاصمة اليمنيــة (صنعـــاء) بمسافة (١٠٠) كم تقريباً، وقد شيدت في الجانب الشمالي الشرقي من قاع (بلسان) في وادي الجناة الذي يمتد طولياً من الغرب إلى الشرق في ذات اتجاه مجرى المياه للوادي المعروف في الوقت الحالي بـ (وادي الجناة)(١١) .

وإلى الشمال من مدينة (ذمار) يقع حصن (هِرَان) الأثري الذي يبعد عنها بمسافة (١) كم تقريباً، وإلى الجنوب تقع قرية (ذمار القرن) على بعد (٤) كم تقريباً، وإلى الشرق تقع قرية (الملة) وإلى الشمال قرية (بفع) التي تنسب إليها عشيرة (يهفرع) المنتسبة إلى قبيلة (مقرى) (مهقرم)(١٢) .

وسنأتي على ذكر هذه المدن والقرى والقبائل لاحقاً وقد توصلت بعض الدراسات، من خلال تحليل المعطيات النقشية والأثرية والإخبارية، أن قرية (ذمار القرن) الحالية، التي أصبحت شبه متصلة بمدينة (ذمار) الحالية من جهة الجنوب، هي ذاتها (ذمار) القديمة، لاسيما أنها تقع في مكان مرتفع حصين الأمر الذي يتفق مع التحصينات الدفاعية الحميرية، إذ كان الحميريون (الريدانيون) يحرصون على تشييد مدنهم وقلاعهم وحصونهم على الأماكن المرتفعة والوعرة صعبة المنال بالنسبة للأعداء، وهو الأمر الذي لا يتفق مع موقع مدينة (ذمار) الحالية التي شيدت مبانيها في قاع منبسط تماماً(١٣) .

ويعتقد الباحث أن ذلك يحمل شيئاً من الصواب، وأن مدينة ذمار الحالية تم تشييدها في عهد الإسلام وأنها كانت أرضاً زراعية لـ (ذمار) القديمة منذ العصر الحميري على الأقل .

وقد ورد ذكر(ذمار القرن) لدى المؤرخ الآثاري (الهمداني)[١٤]، الذي أوضح الفرق بينها وبين (ذمار المخدر) بقوله (..وذمار القرن قرية قديمة خراب وأما ذمار المخدر فغيرها..) .

و(ذمار المخدر) بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة وآخره راء، هي اليوم خرابٌ يبابٌ تقع إلى الشمال الغربي من مدينة (ذمار) الحالية بمسافة أربعة أميال تقريباً، وفيها و(ذمار القرن) آثار حميرية[١٥]، ويبدو أنها كانت أحد المواقع الحميرية أما (ذمار القرن) فقد قامت إحدى الدراسات الأثرية التي أجريت على الموقع، بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام[١٦]:

١. القسم الشرقي: وهو أكبر الأقسام مساحة ويكاد يكون خالياً من المباني المستحدثة وتتوسطه (بركة) مياه محفورة في الصخر ومغطاة بطبقة من القضاض، وتنتشر على سطح هذا القسم مبانٍ مندرسة شيدت بأحجار كبيرة الحجم وغير مهندمة، كما تنتشر به قطعُ الفخار التي تعود إلى ما قبل الإسلام، وتتضح بصورة جلية آثار السور القديم الباقية على حافة الجبل وبخاصة في الناحية الجنوبية الشرقية، وكان يتم الدخول إلى ذلك القسم من مدخل عبر بوابتين إحداهما شرقية وهي الرئيسة وما تزال بقايا أحد جدرانها الجانبية ماثلة للعيان، والبوابة الأخرى جنوبية ويمكن مشاهدة آثارها على السور ويدل حجمها الصغير على أنها كانت بوابة فرعية، وكان لهذا القسم طريق رئيس عبر (النقيل) الذي يوصل إلى الموقع، وما يزال بصورة سليمة في الناحية الشرقية، وهو ممر يصعد بصورة متعرجة من أسفل الجبل حتى يصل إلى البوابة الرئيسة في الناحية الشرقية، ويوجد به برج للحراسة (محفد) تم

تشييده مستقلاً عن جدار السور وعلى مقربة من البوابة الرئيسة وقد شيد بشكل مربع بحيث يشرف على الناحيتين الشرقية والشمالية، كما توجد به مقبرتان صخريتان متجاورتان[١٧] .

٢. القسم الغربي: وهو أكثر الأقسام وعورة ويعد محصّناً طبيعياً فالمنحدرات تحيط به من النواحي: الشمالية والجنوبية والغربية، وتتميز المباني الموجودة به بطابع إسلامي، وقد استعملت في بنائها الأحجار الأثرية التي كانت مبنية بها المباني القديمة، ويوجد به سور شيد فوق أساس السور القديم، وكما هو الحال بالنسبة للمباني فقد تم تشييده من الأحجار الأثرية للمباني القديمة، ويوجد به عدد من الأبراج الدائرية الشكل وبكل برج عدد من الفتحات (المز اغل) التي كانت تستعمل لرمي السهام وغير ذلك من وسائل الدفاع، وتقع البوابة الرئيسة للسور في الناحية الشمالية ويتقدمها برج متصل بالسور يحجب الرؤية عن القادمين إلى القرية، وبه خزانان (بركتان) لحجز المياه محفوران في الصخر، وخارج السور يوجد (مأجل) خزان آخر محفور في الصخر ويسمى (مأجل الدنان)[١٨] .

٣. القسم الأوسط: ويتألف من مساحة منبسطة من الأراضي تنتهي بانحدارات شديدة في نواحيها الشمالية والغربية، وأقل من ذلك في الناحية الشرقية، أما الناحية الجنوبية فتتصل بالجبل، ويوجد به عدد من المباني من أهمها مبنى تم تشييده فوق أساس مبنى حميري قديم، وبه خزان مياه (مأجل/ماجل) لتجميع المياه محفور في الصخر، وبه آثار لسور قديم شيد بأحجار مهندمة وبأسلوب البناء المتدرج، وذلك بهدف التحصين الإضافي للناحية الشمالية[١٩] .

من ذلك نجد أن موقع (ذمار القرن) هو ذاته موقع مدينة (ذمار) القديمة، وأنه كان أحد المواقع الحميرية (الريدانية) المهمة، وذلك يتضح من خلال

التحصينات الكبيرة التي أحيط بها الموقع، وهو الأمر الذي يتفق مع الأيدلوجية الحميرية (الريدانية) الدفاعية والتحصينية المتبعة في المدن والمواقع الحميرية الأخرى[٢٠] وذلك مما يجعلنا نفترض إن تشييد مدينة (ذمار) القديمة قد تم زمن الحميريين وليس قبل ذلك .

وبالقرب من (ذمار القرن) إلى الشمال منها بمسافة كيلو متر واحد تقريباً تقع مدينة (هرّان)، وحصنها الأثري السالف الذكر ، التي ورد ذكرها لدى (الهمداني الصفة، ص ١٥٢) أثناء حديثه عن ميزاب اليمن الشرقي (.. وهَرّان بسواد ذمار ..)، وبها حصن ما يزال يؤدي مهمته وهو جبل بركاني مع سواده وكانت به قرى عامرة وقصور عالية، وكانت تقطنه قبيلة (جُنب) التي كان لها دور تاريخي بارز حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ثم توالت عليها المحن فانتقلت إلى مغرب عنس، وفي (هَرّان) آثار حميرية[٢١] .

مخاليف (ذمار) وأبرز قبائلها :

تحدث (الهمداني) عن مخاليف ذمار وفصّل فيها وذلك أثناء حديثه عن (ذمار) إذ قال: ".. ورأس مخاليفها بلد عَنْس وساكنه اليوم بعض قبائل عَنْس بن مذحج ، ويقال إنه منسوب لعنس بن زيد بن سدد بن زُرعة بن سبأ الأصغر، وهو مخلاف نفيس كثير الخير عتيق الخيل كثير الأعناب والمزارع والمآثر .."[٢٢] .

ويذكر (الهمداني)[٢٣] أن بلاد عنس تتوسط حمير ومن بطون عنس: يسران وضبيان ولبؤة ومداقة ونشران وتبين وأذنه، وقد فصّل في نسب عنس وأولاده، إذ قال:

".. وأما أولاد عنس بن مذحج لصلبه: فجشم رهط الأسود بن كعب المتنبي، وسعد الأكبر وسعد الأصغر وعمرو وعامر ومعاوية ومالك وعتيل وشهاب وعزيز ويام والقِريَة وعُينيل دخيل وهو من همدان .."[٢٤] .

بينون :

يذكر المؤرخون أن بينون ضمن مخلاف (عنس) وأنها ضمن مآثر بلاد عنس[٢٥]، وتقع شمال شرق (ذمار)[٢٦] في مديرية (الحداء)، وقد تغنى الشعراء بقصر بينون إذ قال الشاعر:

أبعد بينــون لأعينُ ولا أثــر وبعد سلحين يبنى الناس بنيانا[٢٧]

وقصر بينون من أبرز قصور (اليمن) القديمة وأشهرها، وقد استدل بعض الباحثين من خلال تحليلهم للمعطيات النقشية والأثرية لاسيما نقش من (بينون) مؤرخ بحوالي (٣٠٥م) من عهد الملك الحميري (شمر يهرعش) (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت)، بأن القصر الملكي (بينون) كان يتألف من خمسة طوابق (أسقف) وقاعتين، ويحيط بالقصر عدد من المحافد (الأبراج - نوبات الحراسة) التي شيدت من ثلاثة طوابق، كما اشتمل القصر على البساتين المحيطة به فضلاً عن (خزّانين) (بئرين) للماء ربما كانت تستعمل لمياه الشرب، وتدل الآثار على بقايا لعدد من خزّانات المياه المنتشرة في منحدرات جبل (بينون)[٢٨] .

ويبدو أن مدينة (بينون) كانت تحتل أهمية خاصة بين المدن الحميرية منذ عهد الملك (ياسر يهصدق) (ملك سبأ وذي ريدان) الذي يرجع بعض المؤرخين حكمه إلى حوالي (٧٠) أو (٨٠) ميلادية[٢٩]، لاسيما أن (بينون) تقع ضمن قبيلة (شداد) (الحداء) المحاربة، ويستدل بعض الباحثين من خلال الدراسات النقشية، أن مدينة (بينون) تعرضت للتدمير من قبل الجيش السبئي

آنذاك، الأمر الذي يؤكد أهمية المدينة وتدعيمها بمحافد (أبراج) جديدة تتناسب وحجم التهديدات السبئية التي كانت تواجهها المدينة[٣٠].

وتعد مدينة (بينون) اقرب المدن الحميرية إلى العاصمة السبئية[٣١] (مأرب)، ومن المحتمل أنها كانت مركز تجمع لقوات قبيلة (شداد) وحلفائها إذ يحدثنا النقش (Ja:644) عن هجوم شنه (الحيعثت بن سمهسمع) ومعه قبيلته (شددم) (شداد)، على قصر (سلحين) في (مأرب)، غير أن قبيلة (غيمان) تمكنت من صدهم ودحرهم، ثم هاجمتهم في منطقة (كومنن)[٣٢]، أي (كومان) إحدى القرى في مديرية (الحداء)[٣٣].

ومن المحتمل أن هجوم قوات (شداد) على مأرب، قد ألَب عليها ملوك (سبأ) الذين أوعزو لقبيلة غيمان القريبة من قبيلة (شداد) بطردها من (مأرب) وملاحقتها حتى أراضيها في (كومان)، ويبدو أن التحصينات الدفاعية التي أمر ببنائها الملك (ياسر يهصدق)، كانت نتيجة لتلك المواجهات العسكرية بين السبئيين والحميريين[٣٤].

ومما تقدم نجد أن مدينة (بينون) كانت تحتل أهمية كبيرة في استراتيجية الدولة الحميرية لوقوعها ضمن أراضي قبيلة (شداد) المقاتلة التي عُرفت بشدة مراسها، وكون (بينون) تقع على خط المواجهة مع (سبأ)، لذلك اهتم ملوك حمير ببنائها وتحصينها[٣٥] ويذكر المؤرخون، أن (أسعد الكامل) (بن ملكيكرب يهأمن) (٣٨٥-٤٢٠م) موحد اليمن، أقام في قصر ريدان بـ (ظفار) العاصمة الحميرية وفي قصر (بينون)، وربما كانت تعد (بينون) على حد رأي فريق من المؤرخين، العاصمة الحميرية الثانية إلى جانب (ظفار)[٣٦].

ويبدو أن الحميريين كانوا يتخذونها عاصمة لهم ثانية لاسيما عند اشتداد الصراع بينهم وبين السبئيين، وربما كانت أيضاً مدينة للخلوة والاستراحة بعيداً عن مشاغل العاصمة (ظفار) وهمومها، وقد وجدت البعثات الأثرية في

(بينون) عدداً من اللقى الأثرية، غير أن أهم الآثار الموجودة بها، بقايا القصر الذي كان يعد أروع مبنى في المدينة، والمعبد الذي يقع أسفل القصر الملكي الذي لم يبق من جدرانه سوى جدار واحد ونفقين أحدهما مسدود والآخر مفتوح، وقد وجد الباحثــون صعوبــة في تحديد زمن هذين النفقين[٣٧] .

ألهان ومقرى :

ورد ذكر هذا المخلاف لدى (الهمداني، الصفة، ص ٢٠٨) "مخلاف ألهان ومقرى هو مخلاف واسع ينسب إليه غربي حقل جهران مثل ذي خشران ومعبر، وألهان في ذاتها بلد واسع ومجمعها الجبّ جب ألهان ويسكنها ألهان بن مالك أخو همدان وبطون من حمير وقراها تكثر، ومقرى يسكنها آل مقرى بن سميع ..." وجبل ألهان في شمال (آنس) في عزلة (حمير) يعرف بخصوبة تربته ووفرة سكانه[٣٨] .

وفي نسب مقرى يذكر (الهمداني)[٣٩] : "فأولد سميع بن الحارث بن مالك بن زيد بن الغوث: مُقرى زنة مُعطى، وهو عبد الله بن سميع .." وكانت ديار قبيلة (مُقرى) إلى الغرب من (ذمار) وإلى الجنوب من (ألهان)، وهي ضمن أراضي (حمير)، وقد جاء ذكرها في النقش (RY:591) وصاحب النقش هو (ألهان بن يهفرع) من قبيلة (مقرى) ،

وقد وصفوا بني يهفرع في النقوش الحميرية بأقيال (مقرى) وهو ما نجده في النقش (CiH; 569)، وفي نقش آخر من (مصنعة مارية) غرب (ذمار)[٤٠] .

وتمتد أراضي مقرى وألهان على شكل قوس نصف دائري أو شبه منحرف يبدأ من غرب (ذمار القرن) ويمتد نحو (سمعان /مصنعة مارية) مروراً بضوران آنس وينتهي بـ (ضاف) أسفل نقيل يسلح، ويعدان (قاعي جهران وذمار) الجزء المهم في هذه القبيلة، نظراً لما يختزنانه من مياه جوفية كثيرة وأراضي

زراعية خصبة، ويمكن القول أنها تشمل منطقتين: الأولى معسج (سائلة معسج) التي تتألف من واد غرب مدينة (ذمار)، وتضم في مجموعها قرى تشكل - حالياً - في أعمالها مركزاً من مديرية (عنس) مثل: دفينة و(خران) و(مارية) و(ميفع) وخرابة المقادشة و(مروحان)، والمنطقة الثانية: (آنس) وهي بلد واسع يقع إلى الجنوب الغربي من (صنعاء)، وكانت بلاد (آنس) قديماً تعرف بمخلاف (ألهان ومقرى)[٤١]. وبنو مقرى قبيلة من حملة العلم يسكنون (عُتمه) إلى الغرب من (ذمار)[٤٢].

سمعان (مصنعة مارية):

تقع مصنعة مارية إلى الغرب من مدينة (ذمار) الحالية، ويقال لها (مصنعة أسعد)[٤٣] أي مصنعة (أسعد الكامل) (أسعد أبو كرب) التبع اليماني المعروف السالف الذكر، وتقع على قمة هضبة مرتفعة محصنة طبيعياً وتحيط بها أراضي زراعية خصبة، وتبلغ مساحتها حوالى (١٥-٢٠) هكتاراً، وقد أكدت البعثات الأثرية بأن موقع مصنعة مارية يعد مدينة متكاملة العناصر، إذ تتناثر في خرائبها آثار متنوعه ترجع إلى عصور متباينة[٤٤].

ولكن العصر الحميري يعد الأكثر بروزاً ووضوحاً في آثار مدينة سمعان، إذ إن الموقع يشمل أساسات لمباني شيدت بأحجار مهندمة بدقة كبيرة ومهارة عالية وإتقان كبير وبما يتناسب مع الأهمية السياسية والحضارية للمدينة في العصر الحميري[٤٥].

وقد توصلت بعض الدراسات النقشية من خلال دراستها لأحد أقدم النقوش التي عثر عليها في جدران قرية مارية، إلى أنه يرجع إلى عهد الملك الحميري (شمر يهحمد) ملك سبأ وذي ريدان الذي حكم المناطق الحميرية في النصف الأول من القرن (الثالث) الميلادي والذي واجه الحميريون في عهده

هجمات قوية ومتكررة من قبل قوات ملوك سبأ لاسيما (أيل شرح يحضب الثاني) وأخيه (يأزل بين) ملكي سبأ وذي ريدان، فضلاً عن ذلك تنتشر على جدران قرية (مارية) المجاورة للمصنعة نقوش متعددة بعضها يرجع إلى منتصف القرن (الرابع) الميلادي، ومن خلال المعلومات التي أوردتها تلك النقوش، اتضح أن مدينة (سمعان/مصنعة مارية) كانت تابعة لقبيلة مقرى[٤٦]، ويتضح من خلال الدراسات النقشية أن المدينة شهدت إزدهاراً منذ عهد الملك الحميري (شمر يهحمد)، من أبرز معالمه شق ورصف (مناقل/طرق) جبلية متعددة من أجل ربط المدينة بما حولها من المناطق لاسيما الغربية ذات الطبيعة الجبلية الوعرة، ويبدو أن ذلك قد تم في عهد الملك (ثاران يهنعم) في مطلع القرن (الرابع) الميلادي[٤٧].

وقد توصلت بعض الدراسات إلى أن (مقرى وألهان) هما فرعان لقبيلة سبئية رئيسة هي(بكيل)، التي تعد أحد الأفرع (الثلاثة) للمجموعة القبلية (سمعي) التي كانت تقطن الهضبة الغربية لبلاد العرب الجنوبية، وقد كان لها دور بارز أثناء الصراع السبئي الحميري[٤٨].

مهأنف:

قبيلة (مهأنف) (آنس) من القبائل المعروفة التي ورد اسمها في عدد من النقوش، منها النقش (Ja:576/6.7) الذي يتحدث عن الصراع الدائر بين الملك الحميري (شمر يهحمد) (شمر ذو ريدان) والملك السبئي (أيل شرح يحضب) الذي شن هجوماً على قبيلة (مهأنف)، وإنه هو وجيشه قتل وسبى وغنم غنائم حققت له الرضا، ثم عادوا من أراضي (مهأنف) وصعدوا نقيل (ذي يلرن)[٤٩] إذ اقتحموا بلدة (تعرمان) وقتلوا كثيراً من أعدائهم وسبوا وأسروا كل رجالها ونسائها وأطفالها، ثم توجهوا نحو مدينة (نعض)[٥٠]، ثم توجه الملك (أيل

شرح يحضب) مرّة أخرى من مدينة (نعض) على رأس قواته إلى أراضي قبيلة (مهأنفم/مهأنف) توجه وكانت قواته تتألف من المشاة والفرسان، وسيطروا على مدينتي (عثى) و(عثر)[٥١]، وأسروا وغنموا منها كثيراً، ثم تركوها واتجهوا نحو مدينة (مذرحم)، (مذرح) وهي مدينة عشيرة (مذرح/مذرحم) فحاربها وحارب قبيلة (مهأنف) التي فرت إلى مدينة (ضفو/ضاف) فاقتحمها وغنم منها غنائم كثيرة، ثم غادرها إلى مدينة (يكلا، يكلئ)[٥٢] حيث وجد بعض زعماء (ريدان) وبعض كتائب (حمير) فالتحم بهم وهزمهم في منطقة (مرحض/مرحضان) ثم تعقبهم حتى (يكلا)، ثم عادت قوات (أيل شرح) إلى مدينة نعض حيث معسكرها الدائم[٥٣].

ويبدو أن تلك الصدمات التي دارت بين (شمر يهحمد) و(أيل شرح يحضب) قد حدثت في المنطقة الممتدة من (نقيل يسلح) شمالاً إلى مدينة (ذمار) وبخاصة في منطقتى (آنس/مهأنف) و(الحداء/شداد) بضمنها (قاع جهران) التابع لقبيلة (مهأنف)[٥٤].

أوضاع ذمار والقبائل المحيطة بها
أثناء الصراع السبئي ـ الحميري

مما لاشك فيه إن (ذمار) والقبائل المحيطة بها، كانت خاضعة للنفوذ السبئي وذلك قبل نشوء الكيان الحميري الريداني في (ظفار) (منكث) شمال شرق مدينة (يريم) الحالية، عام (١١٥ ق.م).

وقد أخذ بنو (ذي ريدان)[٥٥] (الحميريون) يوسعون نفوذهم على حساب السبئيين شيئاً فشيئاً لاسيما باتجاه الشمال حتى أصبحت (أرض حمير) التي ترددت في النقوش، تمتد شمالاً حتى شمال قاع جهران لتضم أراضي القبائل

القاطنة هناك مثل: (مهأنف) (قاع جهران/آنس) و(مهقر/غرب ذمار) و(شداد، شدادم/الحداء) وكافة المناطق الواقعة إلى الجنوب من نقيل يسلح[٥٦] ويمكن القول إن الحميريين كانوا قد تمكنوا من الاستيلاء على الهضبة وعلى المناطق الجنوبية من اليمن الممتدة على البحر الأحمر[٥٧] بضمنها (ذمار) وما حولها.

ويظهر أن التوسع الريداني/الحميري في أراضي (سبأ) قد أدى إلى التصادم بين الكيانين السبئي والحميري لاسيما إن ملوك حمير من الريدانيين قد حملوا لقب (ملك سبأ وذي ريدان) الأمر الذي زاد الوضع تعقيداً وتؤكد النقوش التي بين أيدينا إن (ذمار) والقبائل المحيطة بها، كانت جزءاً من الصراع المحتدم بين السبئيين والحميريين، وهو صراع على اللقب الملكي المزدوج المعروف بـ (ملك سبأ وذي ريدان).

ويتألف ذلك اللقب على ما يبدو من جزئين: الأول قديم ومعروف وهو (ملك سبأ) الذي يرجع إلى ما قبل الميلاد، أما الثاني وهو (ذي ريدان) فهو لقب زعماء (حمير/الريدانيون)، ونجده في النقوش السبئية، إذ كان يطلقه ملوك سبأ على خصومهم من (بني ذي ريدان) (الحميريين) الذين يحملون اللقب المزدوج ذاته (ملك سبأ وذي ريدان)[٥٨].

ويتضح لنا ذلك بصورة جلية في حالة الملك الحميري (ذمار علي يهبر ملك سبأ وذي ريدان، المعاصر لـ (وهب آل يحوز) و(سعد شمس أسرع) وابنه (مرثد يهحمد) ملوك سبأ، وكذلك الحال بالنسبة لـ (شمر يهحمد) ملك سبأ وذي ريدان الحميري، الذي وصف في نقوش خصومه السبئيين بـ (شمر ذي ريدان)[٥٩].

من ذلك نجد إن حمل اللقب الملكي المزدوج لدى الجانبين السبئي والحميري، مع تبادل عدم الاعتراف من كل جانب للآخر بشرعية حمله ذلك اللقب، أدى إلى عدم اعتراف كلا الفريقين بالآخر. فالسبئيون يصفون الملك

الحميري بأنه (ذو ريدان) والحميريون يصفون الملك السبئي بأنه (ملك سبأ)[٦٠] فحسب .

وفي مرحلة لاحقة، لابد أنها جاءت بعد حروب بين (سبأ) و(حمير)، أدت إلى انكماش (سبأ) وفقدانها كل الأراضي الواقعة إلى الجنوب من نقيل يسلح، بلغ النفوذ(الحميري/الريداني) أقصى امتداد له باتجاه الشمال فأصبحت الأراضي الواقعة جنوب نقيل يسلح بضمنها (ذمار) وقبائلها تعرف في النقوش بأرض حمير[٦١] .

وببلوغ الحميريين أنحاء (ضفو/ضاف) شمال قاع جهران أصبحوا يسيطرون على رقعة كبيرة من الهضبة الواقعة جنوب الكيان السبئي مباشرة، ويجاورون من هناك مناطق (ولدعم/القتبانيين) و(ردمان) و(خولان) و(مضحى) التي استولت عليها حمير بعد الملك (شعر أوتر) الذي لا يبعد زمن حكمه عن عام(٣٠ ق.م) (كما يعتقد بعض الدارسين)[٦٢]، فضلاً عن الأراضي التي كان الحميريون قد سيطروا عليها من قبل، وهي التي تطل على البحر وبخاصة (المعافر/الحجرية) التي كانت تعد الحبل السرّي الذي كان يربط (حمير) بمصادر التجارة من خلال الموانئ، والاتصال ببلاد (عزانيا) (الحبشة) التي كانت إلى ما قبل التدخل الحبشي في شئون (اليمن)، جزءاً أكثر اندماجاً في النظام التجاري الدولي من خلال الدولة الحميرية[٦٣]، بل كانت خاضعة لحكم الدولة الحميرية، إذ يذكر صاحب (كتاب دليل البحر الإريثيري) أن (عزانيا) (Azania) تابعة لـ(كرب إيل) ملك حمير .

أولاً: أوضاع ذمار والقبائل المحيطة بها أثناء الصراع بين (شمر يهحمد) و(أيل شرح يحضب) في أوائل النصف الأول من القرن الثالث الميلادي:

لمعرفة أحوال ذمار ودورها أثناء الصراع السبئي ـ الحميري، لاسيما في عهد الملكين السبئي (أيل شرح يحضب) والحميري (شمر يهحمد)، لابد لنا من العودة إلى النقوش التي دونت أنباء الصراع بين الملكين المذكورين ومن ثم معرفة دور قبائل(ذمار) وأوضاعها في ذلك الصراع، وأول النقوش التي ينبغي العودة إليها، نقش (بيت ضبعان/إرياني/40)[٢٤] الذي جاء فيه: "هذا هو القيل شرحعتث يأمن الذرانحي من (بني ذرانح) أسياد القصر (أحرم) وأقيال قبيلة (ذمار) المرابعين لتحالف (قشم) وهو يعلن إنه قد بنى وأسس وأعاد وجدد وأنجز وزين مصنعتهم المسماة (تعرمان)بكل دورها، ومحافدها وسورها وصهريجها، وذلك بعد أن دمرها وأتلفها (أيل شرح يحضب) ملك (سبأ) أثناء الحرب التي كانت قائمة بين ملوك (سبأ) و(بني ذي ريدان) وجيوشهما، في وقت سابق لهذا اليوم، وقد أكملوا وتوجوا البناء الحجري المهندم في مدة شهرين اثنين أثناء مدة التحكيم بين المتحاربين وقد أنجزوا هذا العمل بمباركة وعون الآلهة (عثتر الشارق) و(ليل) و(سميدع) و(ذات بعدان) وإلههم الخاص (عثتر عزيز ذي جاوب) سيد المعبد (ذي طرر) وأله أمطارهم (ريمان) و(شمسهم) كما تم ذلك بعون سيدهم (شمر يهحمد) ملك سبأ وذي ريدان وبعون وقوة قبيلتهم (ذمار) حلفاء قشم" .

ونجد أن الملكين (أيل شرح يحضب) و(شمر يهحمد) تلقبا معاً بلقب (ملك سبأ وذي ريدان)، وعاشا متصارعين صراعاً عنيفاً بل كان يهدف كل منهما إلى

القضاء على الآخر والسيطرة على أملاكه، ويبدو أنهما كانا متكافئين من حيث القوة والمكانة[٦٥].

والقيل (شرحعثت يأمن الذرانحي)من أسرة (بني ذرانح) التي ورد ذكرها في نقوش أخرى على سبيل المثال (Ja: 629 / 40) ومن هذه الأسرة يكون أقيال قبيلة (ذمار) (ذمري)[٦٦]، وقد ورد نسب أسرة (بني ذرانح) لدى (الهمداني[٦٧]: "فأولد بينون المتبوع بن منياف شهران وذرانح وأعرب ينكف بني بينون: ثلاثة نفر... وأولد ذو ذرانح بن بينون: هَكِر ويَهْكر ويهكار، بني ذي ذرانح ثلاثة نفر...".

أما القصر (أحرم) فلا يُعرف مكانه، غير إن بعض الدارسين يرون أنه ربما يكون بالقرب من مدينة (رداع) حيث يوجد هناك جبل يعرف باسم (أحرم)، لاسيما أنه لا يبعد كثيراً عن سياق النقش وموطن أصحابه[٦٨].

وفيما يتصل بـ (المرابعين لتحالف قشم) الواردة في النقش فيبدو أنها أتت من (المرابعة) وهي ضرب من التحالفات القبلية التي كانت سائدة بين القبائل، وأما (قشم) فإسم لتحالف قبلي أوسع يدخل ضمنه (بنو ذرانح) وقبيلتهم (ذمار)[٦٩].

وبشأن مصنعتهم (تعرمن/تعرمان) فهي (بيت ضبعان)، إذ كانت موقعاً عسكرياً متقدماً، أحرز به الملك (شمر يهحمد) توغلاً في مناطق نفوذ الملك السبئي (أيل شرح يحضب)، وتجاوز به سلسلة الجبال التي تعد التحصين الأول لمدينة (صنعاء) للمتقدم نحوها من ناحية الجنوب، وقد حرص (شمر يهحمد) وأنصاره من بني ذرانح على إعادة تعمير ذلك الموقع العسكري، كما حرصوا على التمسك به استعداداً لاستئناف القتال ؛ لأن الهدنة التي كانت بين الطرفين المتحاربين، لم تكن إلاّ فرصة لالتقاط الأنفاس وإعادة ترتيب الصفوف والمواقع، لذلك بادر القيل (شرحعثت يأمن الذرانحي) إلى إعادة بناء

(التعارم) وتحصينها بشكل يدل على الاستعداد للحرب ولما يحتمل أن تتعرض له من الحصار[٧٠] .

ويبدو أن (مصنعة التعارم) قد تعرضت بعد ذلك للدمار الشامل، وذلك ما نستنتجه من نقوش ملك (سبأ) (أيل شرح يحضب) ذاته التي تدل على أن الحرب قد استؤنفت بين الجانبين، بسبب نكث العهود والإخلال بشروط الهدنة التي كانت مبرمة بينهما[٧١] .

ونجد أن كلمة (ذمار) (ذمر) وردت في النقش مرتين، ويرجح الأستاذ (مطهر الإرياني)[٧٢] إن المراد بها (ذمار) المدينة الحالية المعروفة[٧٣]، وإن هذا الاسم (ذمار) كان يشمل المدينة مع التجمع السكاني المجاور لها أو المحيط بها الذي يعرف الآن بإسم (عنس مشرقها ومغربها) و(الحداء وشداد)، وربما قاع جهران أيضاً[٧٤] .

ولمعرفة وجهة النظر السبئية في ذلك الصراع ومن ثم معرفة أوضاع (ذمار) والقبائل المحيطة بها لابد لنا من العودة إلى النقوش السبئيه وبخاصة النقشين (Ja:576) و(Ja:577) اللذين صورا سير أحداث ذلك الصراع .

ولنبتدئ بالنقش (Ja :576) الذي دون انتصار ملكي (سبأ) (أيل شرح يحضب) وأخيه (يأزل بين) ابني (فرع ينهب)، على القبائل الحميرية، والملك (شمر يهحمد)، إذ يخبرنا النقش المذكور، أنه بينما كان الملك السبئي (أيل شرح يحضب) مع جنوده في معسكره بين (مأرب) و(صنعاء)، أرسل (شمر ذي ريدان) الملك الحميري كتائب من حمير إلى الأرض المحيطة بمدينة (باسن/بوسان)[٧٥] لتقوية دفاعاته هناك ضد (سبأ)، فاتجه (أيل شرح يحضب) بسرعة على رأس جيشه نحو المدينة المذكورة واقتحمها وأسر وغنم هو وجيشه منها، ثم توجه نحو (درجعن/درجعان) فلم يجد بها أحداً يحاربه ؛ لأن جيش الحميريين كان قد انسحب منها، فاتجه (أيل شرح) من هناك إلى أرض

(مهأنف/مهأنفم) التي أرسل إليها قوات سريعة غزتها وأسرت وغنمت منها غنائم كثيرة، ثم اجتازت (منقلن يلرن/يلران)[٧٦] قاصدة (تعرمن/تعرمان)[٧٧] فاقتحمها وأسرت أهلها ثم عادت محملة بالغنائم إلى مدينة (نعض)[٧٨]، وعاد (أيل شرح يحضب) مرة أخرى فخرج من مدينة (نعض) على رأس جيشه، لغزو القسم الشرقي من أرض (قشمم/قشم)[٧٩]، ثم عاد إلى معسكره في مدينة (نعض)[٨٠].

كما خرج (أيل شرح يحضب) على رأس جيشه المتألف من المشاة والفرسان من مدينة (نعض) وغزى أرض (مهأنف/مهأنف) في قاع جهران واستولى على مدينتي (عثى) (عش) وغنم منها غنائم كثيرة، تم اتجه نحو قبيلة (مذرحم/مذارح) وحاربها هي وقبيلة (مهأنف) التي فرت إلى مدينة (ضاف/ضفو)[٨١]، واستولى عليها وغنم منها غنائم كثيرة، ثم توجه إلى مدينة (يكلاء/يكلئ)، حيث وجد بعض زعماء (ريدان) وكتائب (حمير) فاشتبك معهم وهزمهم في (مرحضن) (مرحضان) وتعقب فلولهم حتى بلغ (يكلاء/يكلئ) ثم عاد إلى مدينة (نعض) معسكره الدائم[٨٢].

انتهز الحميريون فرصة انسحاب قوات (أيل شرح يحضب) إلى (نعض)، وفاوضوا زعماء (يكلا/يكلئ) واتفقوا معهم على الانتقام من السبئيين ومهاجمة وادي (سرنجرم/سرنجر) فأسرع الملك (أيل شرح) نحو (يكلأ)، فبلغه أن زعماءها لم يكونوا على وفاق مع حمير وإنما دفعوهم عنهم، فعاد الملك (أيل شرح) إلى (نعض) ثم غادرها إلى (صنعاء)[٨٣].

وعندما كان الملك (أيل شرح) في (صنعاء) علم بأن (شمر ذي ريدان) أرسل (رسلاً) إلى ملك (أكسوم) (عذبت/عذبة) طالباً منه مساعدته في حرب ملك (سبأ) (أيل شرح يحضب)، لذلك قرر الأخير العودة من (صنعاء) ومباغتة (شمر

ذي ريدان) ومن معه من قبائل (ردمان) و(مضحى)[٨٤]، وفي ذات الوقت أرسل (أيل شرح) رسلاً إلى ملك (أكسوم) (عذبة)[٨٥].

وقد هاجمت قوات (أيل شرح) سهل (حرور) (حورور/في المقادشة مديرية الحدأ) و(أرصم/أرص) و(درجعان/دار جاعان) وتغلبت عليهم وأسرت وغنمت منها كثيراً، ثم سار (أيل شرح) مع الجيش حتى منطقتي (قريب) و(قرس/قريس) وردم آبارهم، ثم بعد ذلك اتجه (أيل شرح) نحو أرض (يهبش) (بشار) شرق ذمار و(مقرى) و(شدادم/شداد) وهزمهم وأخذ منهم أسرى وغنائم، ثم اتجه نحو بيت (رأس)، فاستولى عليها مع حصونها وأبراجها واستولى على مدينة (راسو)، ثم توجه بعد ذلك نحو بيت (سنفرم/سنفر)، ثم نحو مدينة (ظلم/ظلمان/جنوب ذمار) التي وجه إليها قوات كبيرة من المشاة بقيادة كبار ضباطه وتم الاستيلاء عليها، وتم دحر قوات (شمر ذي ريدان)[٨٦].

وجمع (شمر ذي ريدان) جيشه ومساعديه من قبائل (حمير) و(ردمان) و(مضحى) لصد جيش (أيل شرح يحضب) وعسكر بهم في السهل الواقع بين (هرَان) و(ذمار/ذمار القرن) (أي في موقع مدينة ذمار الحالية)، وقد رأى ملك (سبأ) (أيل شرح يحضب) أن يباغت قوات الحميريين المتجمعة في ذلك السهل، فسار على رأس جيش يتألف من (ألف وخمسمائة) جندي و(أربعين) فارساً وعدد من الأقيال، والتقى بـ (شمر ذي ريدان) ومعه (ستة عشر ألف) جمل ومن معه من قبائل (حمير) و(ردمان) و(مضحى)[٨٧]. ومن الواضح أن هذه القبائل كان لها دور بارز في القتال[٨٨] ضد السبئيين، غير أن (أيل شرح يحضب) باغت جموع الحميريين، وفر بعض الريدانيين إلى وسط مدينة (ذمار/ذمار القرن)، وبذلك مُني الجانب الحميري بهزيمة أجبرته على الانسحاب إلى وراء أبواب مدينة (ذمار) (ذمار القرن) الحالية، وقد ذهب قسم من جيش (أيل شرح يحضب) لمطاردة (شمر ذي ريدان) الذي تحصن في (ذمار

القرن)، بينما ذهب القسم الآخر من الجيش ممن أصابهم التعب والإرهاق جراء المعارك العنيفة بين الجانبين إلى معسكرهم في (انحرم/انحر) و(طريدم/طريد)[٨٩] وفي نهاية النقش (Ja:576) عبارة ناقصة، ولم يتسنَ لنا معرفة ما حدث بعد ذلك بسبب التلف الذي أصاب نهاية النقش، غير أن العبارة الناقصة التي في نهاية النقش المذكور أتت بقيتها في النقش (Ja: 577/1) الذي يبدو أنه يكمل أحداث النقش السابق .

ومما يؤسف عليه إن هذا النقش أيضاً قد أصاب مقدمته التلف فلم يتسنَ معرفة بدايته، إذ تبدأ الأنباء الواردة به بـ : ... وقتل فرسه المسمى (وحاض)، ثم توجهوا إلى مدينة (زخنم/زخم) وألحقوا بحاميتها من كتائب (حمير) و(مضحى) و(ردمان)، خسائر فادحة وحصلوا منها على غنائم أسعدتهم . ونالت الرضا والإعجاب لدى الملك السبئي (أيل شرح يحضب)، وبعد ذلك توجه الملك (أيل شرح يحضب) ومعه نخبة من جنوده إلى (ترزنن/ترزن)[٩٠] .

من ذلك نجد أن النقش يشير بوضوح إلى أن (شمر ذي ريدان) الملك الحميري قد قُتل فرسه (وحاض) مما يدل على الهزيمة التي مني بها الجيش الحميري في (ذمار)، بل إن الجيش السبئي قام بملاحقة الحاميات الحميرية حتى مدينة (زخنم/زخم)[٩١] وهزموا حاميتها من قبائل (حمير) و(ردمان) و(مضحى) المساعدة للجيش الحميري[٩٢] .

ويبدو أن الملك السبئي (أيل شرح يحضب) قد اكتفى بالنصر الأخير على خصومه الحميريين، فعاد إلى قاعدته ربما (نعض) في حين ذهب قسم من جيشه إلى مدينة (ترزنن/ترزن) للاستراحة بعد القتال العنيف الذي أرهقهم[٩٣] .

يتضح لنا مما سبق أن النقشين (Ja : 577) و(Ja : 576) متصلان، ويمكن اعتبارهما نصاً رسمياً واحداً لأحداث مرحلة كاملة، إذ إن بقية أخبار الصراع بين (سبأ وحمير) التي أوردها النقش (Ja : 576) زمن الملك الحميري (شمر يهحمد)، أتت في (الثلاثة) السطور الأولى من النقش (Ja : 577)[٩٤] .

وهكذا نجد أن الجولة الأخيرة التي قام بها الملك السبئي (أيل شرح يحضب) بجيشه (الخميس) ومعه الأقيال على أراضي (حمير) و(ردمان) و(مضحى)، قد امتدت هذه المرّة لتصل المعارك إلى قلب قاع جهران وإلى (مقرى) الواقعة غربي مدينة (ذمار)، بل إن القوات السبئيه بلغت بعد ذلك مدينة (هِران) شمال مدينة (ذمار) وكذلك طالت مدينة (ذمار/ذمار القرن) ذاتها، حيث حدثت أول مواجهة معروفة بين الملكين الحميري (شمر يهحمد) والسبئي (أيل شرح يحضب)، وعلى الرغم من الدور البارز التي أبدته قبائل (حمير) وأولاد (عم) أي القتابنيين و(مضحى) و(ردمان) في القتال مع الجيش الحميري، إلاّ إن الجانب الحميري وملكه (شمر يهحمد) مُني بهزيمة أجبرته على التراجع إلى ما وراء أبواب مدينة (ذمار) التي احتمى بأسوارها[٩٥] .

أما فيما يتصل بما ورد في النقشين من أسماء أصقاع ومدن هاجمها أو اقترب منها السبئيون، فمعظمها لم يتيسر التعرف عليها؛ لأنها أما أُزيلت آثارها من الوجود تماماً ولم تعد معروفة، أو حلت محلها قرى أخرى، أو لم يتم التعرف بعد على آثارها إن كانت لها آثار باقية[٩٦] . وأما الأسماء التي أمكن التعرف عليها فقد تم تحديدها لاسيما إن بعضها مايزال يحمل الاسم ذاته إلى اليوم .

بعد الهزائم السالفة الذكر التي نالها (شمر يهحمد) الحميري في (ذمار) وما حولها، على يد السبئيين، لم يعد أمامه من حل سوى الارتماء في أحضان (الحبشة)..، إذ تمكن من إقناع ابن نجاشي الحبشة (جرمة/جرمت)

بمساعدته في حروبه ضد خصمه ملك (سبأ) (أيل شرح)، فأمده (جرمة/جرمت) بكتائب حبشية محاربة قوّت مركزه إلى حد كبير[٩٥] كما جاءته إمدادات من قبائل (سهرة) في ساحل تهامة، فأخذ يتحرش بالسبئيين، مما دفع ملكهم (أيل شرح يحضب) إلى السير إليه ومقابلته على رأس قوة تتألف من (ألف) محارب و (ستة وعشرين) فارساً، فاصطدم مع قوات (شمر يهحمد) والأحباش وألحق بهم هزيمة نكراء، ثم عاد إلى (صنعو/صنعاء) هو وجيشه ومعه الأقيال حاملين معهم أسرى وغنائم وأموالاً طائلة[٩٧] .

ومن المعروف أن الحبشة (أكسوم) كانت ترقب عن كثب ذلك الصراع الدائر في جنوب الجزيرة بين السبئيين والحميريين بعين يقظة طامعة، إذ كانت تسعى لإيجاد موطئ قدم لها على أرض (اليمن) بهدف السيطرة على طرق التجارة البرية والبحرية التي كانت تسيطر عليها اليمن، لذلك رأت (الحبشة/أكسوم) أنه يتوجب عليها الإفادة من الصراع المحتدم بين ملوك (حمير) و(سبأ)، ولم تتخذ الحبشة سياسة ثابتة إزاء ذلك الصراع، فنجدها تؤازر الحميريين تارة وتساند السبئيين ضد الحميريين تارة أخرى، وذلك بهدف إنهاك قوى الفريقين المتصارعين، ليتسنى لها الولوج من خلال ذلك الصراع محققة أهدافها في السيطرة على (اليمن) بسهولة ويسر بعد أن تكون قد أنهكت وتشتت القوى المدافعة عنها .

ثانياً : أوضاع ذمار والقبائل المحيطة بها أثناء الصراع بين (كرب إيل ذو ريدان) والشرح يحضب الثاني وأخيه يأزل بين

استمر الصراع بين (سبأ) و(حمير) في المناطق الشرقية الواقعة على مشارف مدينة (ذمار) الحالية، بعد (شمر يهحمد) مباشرة، زمن الملك الحميري (كرب أيل يفع) (كرب أيل ذي ريدان) الذي يعتقد (V. Wissmann)[٩٨] أنه تولى الحكم في حوالي (٢٢٠/٢٢٢) ميلاديـة . وردت أنبـاء ذلك الصراع في النقش (Ja: 578) الذي يخبرنا بان الملكين الأخوين (إيل شرح يحضب) وأخيه (يأزل بين) ابني فرع ينهب ملكي سبأ وذي ريدان، تمكنا من إلحاق الهزيمة بملك حمير و(ولد عم/القتبانيين)، إذ تجمعت جيوش (كرب إيل) في (حقل حرمة) الواقع على مشارف مدينة (ذمار) الحالية إلى الشرق منها، ويفيد النقش ذاته في الأسطر (٨،٩) إن هذه المعركة امتدت من جبل (أساي/اللسي) و(قرنهن/قرن) إلى الشرق من مدينة ذمار الحالية، حتى (عروشتن) (العرش في رداع) و(ظلمان) إلى الجنوب من مدينة ذمار الحلية و(هكريم/هكر) في الشرق الجنوبي من مدينة ذمار الحالية .

ويبدو أن الملك الحميري (كرب أيل ذو ريدان) والقبائل المتحالفة معه خسروا في تلك المعارك وأنهكهم القتال، وهو ما يفهم من النقش ذاته في الأسطر (١٥-٢١) والتي تفيد بأن قوات الملكين (ايل شرح يحضب) وأخيه (يأزل بين ملكي (سبأ وذي ريدان)، استمرت في ملاحقة القوات الحميرية والقبائل المتحالفة معها التي تجمعت في وادي (أضور) واشتبكت القوتان عند مدينتي (يكلأ/يكلى) و(أبون) وانهزمت القوات الحميرية والقبائل المتحالفة معها .

ويستمر النقش (Ja:578 / 22-28) في سرد الأحداث ويذكر أنه امام هذه الهزائم المتوالية التي مني بها الملك الحميري (كرب ايل ذو ريدان) والقبائل المتحالفة معه، اضطر إلى الفرار إلى حصن (هكر) وتحصن به، غير أن الملكين (أيل شرح يحضب) وأخيه (يأزل بين) ملكي سبأ، قاما بملاحقته ومن ثم محاصرته في مدينة (هكر) حتى اضطر إلى الخضوع لهما والاعتراف بسيادتهما عليه . كما يفيد النقش في السطر (٣٤) أن (كرب عثت أسعد) أحد مساعدي الملك (كرب أيل ذوريدان) قد أصيب بجراح في معركة (حقل هرمة) السالفة الذكر .

ويخبرنا النقش (Ja: 586/4-12) أن الملكين (إيل شرح يحضب) وأخيه (يأزل بين) ملكي سبأ وذي ريدان ابني (فرع ينهب) ملك سبأ، قاما بسحق تمرد (حمير) وتأديب القبائل المتحالفة معها وأنزلا بجيش الملك الحميري (كرب إيل) والقبائل المتحالفة معه خسائر فادحة وغنم الملكان وجيشهما من هذه المعارك غنائم كثيرة نالت السرور في نفسيهما .

ويستمر النقش ذاته في الأسطر (Ja:586/ ١٥-٢٣) في سرد تفاصيل المعارك الدائرة بين الجانبين السبئي والحميري، إذ قام السبئيون بشن هجوم مكون من (أربعين) جندياً على منطقة (سرعان) (سارع في السوادية) وكان بها (مائة) محارب من (الحميريين) وقتلوا منهم (سبعة وعشرين) محارباً، ثم تحركت قوة سبئية مؤلفة من (خمسين) محارباً من (سارع) وباغتت قبيلة (قشم) وقتلوا (الزاد) من قبيلة (ربحم/ربح) فضلاً عن قتل (واحد وخمسين) محارباً من رجاله، ثم عادوا محملين بالغنائم الكثيرة ومعهم أعداد من الأسرى .

ولكن الأنباء السالفة التي أوردها النقش (Ja : 578) عن موقعة (حقل حرمة) تبين وجهة النظر السبئيه فحسب، وعلينا أن نعود إلى النقوش الحميرية لمعرفة وجهة النظر الحميرية عن تلك الموقعة، وموازنة آراء الجانبين

ومن ثم الوصول إلى الرأي الأقرب للصواب عن سير أحداث تلك المعركة، والنقش الحميري الذي يوضح لنا وجهة النظر الحميرية عن سير أحداث الواقعة السالفة الذكر هو نقش (المعسال) (MAFRAY al- MikSaL3) الذي اشترك في فك رموزه (محمد عبد القادر بافقيه) و(كرستيان روبان)[٩٩] .

وصاحب النقش هو (لحيعثت أوكن بن يعزن) قيل قبيلة ردمان وخولان، والنقش على ما يبدو مكرس لوصف اشتراك هذا القيل في القتال إلى جانب الملك الحميري (كرب أيل يفع) و(خميسه/جيشه)، ضد ملك (سبأ) (أيل شرح يحضب) و(خميسه/جيشه)، ويذكر النقش أن المعركة دارت في (حقل حرمة) منذ شروق الشمس حتى منتصف النهار، ويذكر أنهم (أي الحميريين) عادوا بأسلاب سبئية، وأنهم ألحقوا بالعدو (سبأ) خسائر كبيرة بضمنها مقتل خيول وفرسان منهم: (يحمد بن مرثدم) قيل بكيل عمران وفرسه و(سعد ألو بن قدمن) وفرسه همدان، ويبدو أنه كان مقتوي لـ (أيل شرح يحضب)، فضلاً عن قتل وجرح وأسر فرسان وجنود راكبين وراجلين[١٠٠] .

ويذكر النقش، أن ملك (سبأ) (أيل شرح يحضب) و(خميسه/جيشه) بعد تلك المعركة، عاد لثلاث منازلات، وأنه انقلب على عقبيه منكسراً، وأن (كرب أيل يفع) و(خميسه/جيشه) مكثوا بضعة أيام كما أرادوا، ثم عادوا إلى مدينتهم (هكر) محملين بالغنائم ومعهم أسرى وخيول ..الخ .

ومن مقارنة هذا النقش الحميري مع النقشين السبئيين السابقين، يظهر أن النقشين السبئيين أحدث، فهما يذكران أحداثاً جرت بعد معركة (حقل حرمة) أهمها محاصرة (هكر) التي عاد إليها (كرب أيل يفع) وأقياله و(خميسه/جيشه)[١٠١]، كما أن للقيل الحميري (الحيعثت نقشاً آخر من المعسال) (MAFRAY AL – MicsaL 3/3-4)، يذكر فيه أن (كرب أيل) وجهه بقيادة (ثلاثة) آلاف جندي من خميس حمير في حملة بلغت أرض

(مهدهم) الواقعة في الأنحاء الغربية من (صنعاء)، وربما في منطقة حضور (جبل النبي شعيب) .

ويذكر القيل الذي تولي قيالة (ردمان) و(خولان) وهو (حظين أوكن)، معارك خاضها تحت قيادة (كرب أيل) ضد (سبأ)، وأنه أغار بدعم من أقيال وخميس حمير على (الرحبة) (رحبة صنعاء) واحرقوها ثم قاموا بمهمة دفاعية أسفل نقيل يسلح، ثم زحفوا مرة أخرى نحو (الرحبة) واستباحوا بيت (سخيم) و(نحيم) .

مما تقدم يظهر لنا أن الحرب بين الجانبين (الحميري) و(السبئي) كانت سجالاً، ولعل الوجود الحبشي فضلاً عن انشغال كل من (سبأ) و(حمير) بصراعات أخرى، كان الحائل دون حسم مبكر للصراع بينهما(١٠٢) .

ولم تعثر الدراسات النقشية المعروفة منذ عهد (نشأ كرب يهأمن) الثاني، آخر ملوك الجانب السبئي، أو في النقوش الحميرية المعروفة، على ما يشير إلى حدوث صدام بين (سبأ) و(حمير) في ذلك الوقت(١٠٣). و قد يرجع ذلك إما إلى نقص الوثائق التاريخية المتصلة بتلك الحقبة، وإما إلى شعور السبئيين والحميريين بوجود خطر خارجي يهددهما جميعاً، وهو الخطر الحبشي الذي أخذ يتدخل في شئون (اليمن) منذ منتصف القرن الرابع الميلادي(١٠٤).

ويتضح لنا مما تقدم أن (ذمار) والقبائل المحيطة بها كانت تعد خطوطاً دفاعية للعاصمة الحميرية (ظفار)، وإن تلك القبائل قاتلت وأبلت في القتال مع ملوك (حمير) خلال النصف الأول من القرن الثالث الميلادي لاسيما في زمن الملكين (شمر يهحمد) وخلفه (كرب أيل يفع)، وكانت أراضي تلك القبائل مسرحاً للحروب الدائرة بين السبئيين والحميريين، وقد كان لتلك الحروب أثرها الواضح على (ذمار) والقبائل المحيطة بها التي عانت من هجمات

السبئيين المتتالية عليها ونهب ثرواتها وقتل وأسر أعداد غير قليلة من رجالها وسبي نسائها وردم آبارها وقنوات الري الزراعية وتدمير مزارعها وحقولها .

وبحق أن تلك الحروب كلفت تلك القبائل ثمناً باهظاً في الأرواح والأموال وأحلت في كثير من مواضعها الدمار والخراب ونغّصت عيش أهلها وجعلتهم في حالة نفسية قلقة مضطربة ، كما أنتشرت فيها الأوبئة والأمراض وفتكت بأهلها المجاعات، وهو الأمر الذي أبرزته النقوش بصورة جلية . ومما لاشك فيه أن الجانب السبئي عانى من الأمر ذاته ولو بقدر قليل، وتلك إحدى ثمار الحروب دائماً فهي تهلك الحرث والنسل .

د. أحمد صالح العبادي
أستاذ التاريخ القديم المساعد
نائب عميد كلية الآداب للشؤون الأكاديمية
جامعة ذمار

الهوامش

١ - البكري، أبي عبيد، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت : ٤٨٧هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، حققه وضبطه، مصطفى السقا، ط (٣) عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ، ج٢، ص ٦١٤؛ الحموي، أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي، (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت (؟) ج٣، ص ٧ .

٢ - معجم البلدان، ج٥، ص ٦٩.

٣ - المرجع نفسه، ج٣، ص ٧ .

٤ - محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت (؟)، ص ٣١٢-٣١٣ .

٥ - الحوالي محمد بن علي الاكوع بن الحسين، (المحقق)، كتاب الإكليل، لأبي الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، (ت٣٥٠هـ)، بيروت،ط (٣)، ١٩٨١، ج١، ص٤١١، هـ (٢) .

٦ - المرجع نفسه، ص ٤١١، هـ (٢) .

٧ - أبي محمد الحسن، بن أحمد بن يعقوب، (ت٣٥٠هـ)، الإكليل، (تح)، محمد بن علي الاكوع الحوالي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠، ج ٢، ص ١٩٠ .

٨ - ينظر: بأفقيه، محمد عبد القادر، توحيد اليمن القديم المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، ٢٠٠٧، ص ١٠٣ .

٩ - المرجع نفسه، ص ١٠٣- ١٠٤ .

١٠ - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠،ج٢، ص ٣١١ .

١١ - الرازحي، خلدون هزاع، ذمار القرن موقع مدينة ذمار القديمة، صنعاء الحضارة والتاريخ، صنعاء،٢٠٠٥، مجلد (١)، ص١٢٠ .

١٢ - المرجع نفسه، ص ١٠٢ .

١٣ - المرجع نفسه، ص ١٢٤،١٢٥ .

١٤ - الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ـ ٣٥٠/هـ) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٠، ص ٢٠٧ .

١٥ - المرجع نفسه، ص ٢٠٧، هـ (٣) .

١٦ - الرازحي، ذمار القرن، ص ١٢٩- ١٣٣ .

١٧ - لمعرفة المزيد من التفاصيل ينظر: المرجع السابق، ص ١٢٩-١٣٠ .

١٨ - نفسه، ص ١٣٢،١٣١ .

١٩ - نفسه، ص ١٣٢ـ ١٣٤.
٢٠ - نفسه، ص ١٣٢ .
٢١ - الحوالي، محمد بن علي الاكوع (المحقق)، صفة جزيرة العرب، للهمداني، ص ١٥٢، هـ (٧)، ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٩٦ .
٢٢ - الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٠٦ .
٢٣ - الحسن بن أحمد بن يعقوب، الإكليل، ج٢، ص ١٣٣، ١٦٤ .
٢٤ - الهمداني، الإكليل، ج٢، ص ١٦٤ .
٢٥ - الهمداني، الصفة، ص ٢٠٦، قارن: الهمداني، الإكليل، ج٢، ص ١٦٤ .
٢٦ - الاكوع، (المحقق)، صفة جزيرة العرب، ص ١٢٥، هـ (٣) .
٢٧ - أبن خرداذبه، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠/هـ)، المسالك و الممالك، مكتبة المثنى، بغداد (لا . ت)، ص ١٤٥ .
٢٨ - مهيوب غالب، إشكالية ظهور بعض المدن الحميرية (ظفار ـ بينون ـ سمعان)، مجلة سبأ، جامعة عدن، العدد (١٣)، ديسمبر (٢٠٠٤)م، ص٢١ .
٢٩ - ينظر: مهيوب غالب، إشكالية ظهور بعض المدن ..)، ص ٢١. **Wissmann ,V, Himyar ancient history, Lemuseon, (?), 1881,... p.450**
٣٠ - أحمد، إشكالية ظهور بعض المدن الحميرية، ص ٢١ .
٣١ - المرجع نفسه، ص ٢٢ .
٣٢ - جوادعلي، المفصل، ج٢، ص ٤٧٧ ؛ أحمد، إشكالية ظهور بعض المدن الحميرية، ص٢٢، ٢٣ .
٣٣ - مهيوب غالب، إشكالية ظهور بعض المدن الحميرية، ص ٢٣ .
٣٤ - المرجع نفسه، ص ٢٣ .
٣٥ - المرجع نفسه، ص ٢٣ .
٣٦ - ينظر جواد علي، المفصل، ج٢، ص ٥٧٢ ؛ مهيوب غالب، إشكالية ظهور بعض المدن الحميرية، ص ١٩ .
٣٧ - مهيوب غالب، أشكالية ظهوربعض المدن ، ص ٢٠ .
٣٨ - الحوالي (المحقق) صفة جزيرة العرب، ص ١٢٢، هـ (٣) .
٣٩ - الإكليل، ج٢، ص ٢٣٧ .
٤٠ - بافقيه، توحيد اليمن القديم، ص ٩٣ — ٩٤ .
٤١ - مهيوب غالب، مقرى ألهان، القبيلة، مجلة سبأ، جامعة عدن، العدد (١٤-١٥)، ٢٠٠٧، ص٧٩-٨٠ .
٤٢ - الهمداني، الإكليل، ج٢، ص٢٣٧، هـ (٨٧٥) .
٤٣ - مهيوب غالب، إشكالية ظهور بعض المدن الحميرية، ص٢٣ .

٤٤ – المرجع نفسه، ص ٢٥ .
٤٥ – المرجع نفسه، ص ٢٥–٢٦ .
٤٦ – المرجع نفسه، ص ٢٦ .
٤٧ – المرجع نفسه، ص٢٦ .
٤٨ – مهيوب غالب، مقرى – ألهان القبيلة، ص٩٠ .
٤٩ – لعله نقيل يسلح المعروف اليوم الواقع شمال قاع جهران .
٥٠ – (نعض) قرية تقع على سفح جبل كنن على بعد نحو من (أربعين) كيلو متراً جنوبي (صنعاء) وقد ذكرها في عدد من النقوش: الإرياني، مطهر علي، نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات و البحوث اليمنية، صنعاء، ط (٢) ١٩٩٠، ص ١٥٢ .
٥١ – (عثي و عثر) لم يتم العثور عليهما في المصادر، ويبدو انهما من المدن التى اندثرت ولم يعد لهما أثر باق أو تغيرت أسماؤها وربما تكون (عاثين) الواقعة إلى الجنوب الغربي من قرية (ضاف) الواقعة أسفل نقيل يسلح شمال غرب قاع جهران .
٥٢ – (يكلى): ورد ذكرها لدى (الهمداني، الصفة ص١٥٢) "..ومخلاف جرة ويكلى وجيرة وجهران وهران بسواد ذمار" وأثناء حديثه عن حصون اليمن ذكر أن بها حصن يكلى ".. ويكلى وهكر .."، الهمداني، الصفة، ص٢١٦. ويذكر الحوالي (المحقق، صفة جزيرة العرب، ص٢١٦)، هـ (٤)، أن يكلى من عداد بلاد الحداء (النخلة الحمراء) المعروفة اليوم في شمال شرق ذمار في بلاد (الحدأ) .
٥٣ – Wissmann, V, Himyar ancient history,Lemuseon P. 61
٥٤ – ينظر: الإرياني، نقوش مسندية، ص ٢٣٦، Wissmann ,V, Himyar ancient history, Lemuseon, P 61, 236
٥٥ – تسمية بنو ذي ريدان أو الريدانيون التى وسم بها الحميريون نسبة إلى القصر الملكي (قصر ريدان) الذي تم بناؤه في العاصمة الحميرية (ظفار) منكث .
٥٦ – ينظر: (Ja : 576) بافقيه، توحيد اليمن القديم، ص ١٢٩ .
٥٧ – جواد علي، المفصل، ج٢ ، ص ٥٢٠ .
٥٨ – بافقيه، توحيد اليمن القديم، ص ٢٩ .
٥٩ – ينظر: النقش (Ja : 576/3)
٦٠ – ينظر بافقيه، توحيد اليمن القديم، ص٢٦٩، ينظر: Wissmann ,V, Himyar ancient history, Lemuseon, P 478
٦١ – المصدر السابق، ص ١٣١ .
٦٢ – جواد علي ،المفصل، ج٢، ص٤١٧ .
٦٣ – بافقيه، المرجع السابق، ص٢٦٦ .
٦٤ – (E:40) الإرياني، نقوش مسندية ص٢٥٣ـ ٢٥٤ .

٦٥ – الإرياني، نقوش مسندية، ص٢٥٥ .
٦٦ – نفسه،ص٢٧٢، قارن ص٦٥ .
٦٧ – الإكليل، ج٢، ص١٠٥ -١٠٧ .
٦٨ – الإرياني، نقوش مسندية، ص ٢٧٢ .
٦٩ – نفسه، ص ٢٧٣ .
٧٠ – نفسه، ص٢٧٣- ٢٧٧ .
٧١ – نفسه، ص٢٧٧ .
٧٢ – نفسه، ص٢٧٣ .
٧٣ – سبق القول أن (ذمار القرن) الحالية هي ذاتها (ذمار)القديمة، لأن مدينة (ذمار) الحالية تم بناؤها في العصر الإسلامي .
٧٤ – ينظر :الإرياني، المرجع السابق، ص٢٧٣ .
٧٥ – (بوسان)، وهي الأهجر من بلاد (عنس) الواقعة في الشمال الشرقي من (ذمار)، وهي قرية آهلة بالسكان، ينظر: الهمداني، الإكليل، ج٢، ص١٠٧هـ (٤١٨)، الهمداني، الصفة، ص ١٨٠، هـ (٤) .
٧٦ – – يرى بعض الدارسين أن المراد بها قرية (يكار) الواقعة في حازة قاع جهران الشرقية بالقرب من نقيل يسلح، تواجهها من الغرب قرية (ضاف / ضفو) التي ذكرها (الشرح يحضب) في حروبه، ينظر الإرياني، نقوش مسندية، ص ٢٦٤، و(يكار) ورد ذكرها لدى (الهمداني، الصفة، ص ٢٢٠)، (يكار، يكران) شرقي قاع جهران وذكر أن لها حصن .
٧٧ – (تعرمن / تعرمان): سبق القول بأنها (بيت ضبعان) وفقاً لرأي بعض الدارسين .
٧٨ – (نعض): سبق القول أنها قرية تقع على سفح جبل كنن على بعد (أربعين) كيلو متراً جنوبي صنعاء، وكانت (نعض) المدينة الجرتية التي تعد القاعدة التي ينطلق منها السبئيون عند هجومهم على المناطق الجنوبية (الحميرية) وبخاصة ارض (مهأنف)، ينظر: بافقيه، توحيد اليمن القديم، ص ٢٧١ .
٧٩ – (قشم /قشمم) تحالف قبلي يدخل بضمنه (بنو ذرانح) و قبيلتهم (ذمار)، سبق ذكرها .
٨٠ – ينظر النقش (Ja : 576/6-8)، Wissmann, Himyar ancient history, P 69.
٨١ – (ضاف، ضفو) قرية تقع شمال غرب قاع جهران، وقد ذكر (الهمداني، الصفة، ص٢٢٠) إنها ضاف أسفل نقيل يسلح وما تزال آثارها ماثلة للعيان من قرى قاع جهران .
٨٢ – (Ja : 576/8-9)، ينظر: جواد علي، المفصل، ج٢، ص٤٣٤ -٤٣٥ .
٨٣ – (Ja : 576/10)، ينظر: جواد علي، المفصل، ج٢، ص ٤٣٥ .
٨٤ – (ردمان): وردت لدى (الهمداني، الصفة، ص١٧٩، ١٨٥، ١٨٦)، وكانت مقاطعة كبيرة، وقد تبددت فيما بعد فمنها إلى السوادية (زوف) قديماً ومنها ما اندمج في (سارع)، ومنها ما يحتفظ باسمه (ردمان) التي وردت في نقوش المسند، و(ردمان) عنس الواقعة شرقي مدينة (ذمار) التي

يسمى (قاع الديلمي) لأنه قتل فيها أبو الفتوح الديلمي زمن الملك الكامل علي بن محمد الصليحي، الهمداني، الصفة، ص١٨٥، هـ (١) .

وكانت تمتد إلى شرق (رداع) إلى حدود أرض (قتبان)، أما قلب (ردمان) فهو المنطقة التي تعرف اليوم بـ (المسال) وهو سهل تحيط به المرتفعات من كل الأنحاء، وإلى جنوبه ينتصب جبل شحرار، وهو جبل يطلق على مدينة (وعلان) القديمة حاضرة بني (معاهر) وذو خولان اقيال قبيلة (ردمان) لمزيد من المعلومات عن (ردمان)، ينظر بافقيه، توحيد اليمن القديم، ص ١٥٤ـ ١٥٨.

أما (مضحى) البيضاء الحالية ،فكانت تقع إلى الجنوب منها وكانت (حصي) حاضرتها: بافقيه، توحيد اليمن القديم، ص ١٥٥، ينظر: بافقيه، محمد عبد القادر، أناريبهامن قيلاً وملكاً وأحوال عصره مجلة ريدان، العدد (السابع) ،٢٠٠١، ص٥٣ .

٨٥ - (Ja : 576/11) .

٨٦ - ينظر : (Ja : 576/11) ، قارن :علي ، جواد المفصل ،ج٢، ص ٤٣٥ ؛. Wissmann, Himyar ancient history, P 69

٨٧ - (Ja : 576/15-61) ، Wissmann, Himyar ancient history, P 69

٨٨ - بافقيه، توحيد اليمن القديم، ص ٢٧٢ .

٨٩ - ينظر : Wissmann, Himyar ancient history, P: 69 ؛ علي، جواد المفصل، ج٢، ص ٤٣٦ ؛ بافقيه، توحيد اليمن القديم، ص٢٧٢ .

٩٠ - ينظر: Wissmann, Himyar ancient history, P: 71 ، (Ja : 577/1) .

٩١ - (زخنم /زخم): ربما تكون (رخمه) بفتح الراء والخاء المعجمه ثم ميم وهاء: بلدة وحصن في الشرق الشمالي من مدينة (ذمار) .

وهي من ضواحيها، لاسيما أنها توجد بها آثار حميرية، ينظر: الهمداني، الصفة، ص١٥٢، هـ (٥) ولا يستبعد أن تكون (زخم) المعروفه اليوم والواقعة بمخلاف (صباح) إلى الغرب من مدينة (رداع) الحالية .

٩٢ - (Ja : 577/1) .

٩٣ - جواد علي المفصل،ج٢، ص ٤٣٦، Wissmann, Himyar ancient history, P: 71

٩٤ - ينظر: بافقيه، توحيد اليمن القديم، ص ٢٧٢.

٩٥ - ينظر: بافقيه، المرجع نفسه، ص٢٧٢ـ ٢٧٣.

٩٦ - المرجع نفسه، ص ٢٧٢ .

٠٠ كانت الحبشة قد بدأت تتدخل في شئون (اليمن)، مستفيدةً من الصراع الداخلي بها بين مختلف القوى، وكان الاحباش يغيرون سياستهم في (العربية الجنوبية) (اليمن) تبعاً للأحوال المتغيرة، فنراهم تارةً مع الحميريين وتارةً مع السبئيين، فكانت سياستهم قلقة غير مستقرة تبعاً للأحوال المضطربة التي كانت تتحكم بـ(اليمن) آنذاك، ينظر: علي، جواد المفصل ،ج٢، ص٤٤٠-٤٤١ .

٩٧ - المرجع نفسه، ج٢،ص ٤٣٧ .

٩٨ - Himyar ancient history, P : 478

٩٩ - ينظر: بافقيه، توحيد اليمن القديم، ص ٢٧٤ .

١٠٠ - المرجع نفسه، ص٢٧٤ .

١٠١ - نفسه، ص٢٧٥ .

١٠٢ - ينظر: بافقيه، المرجع السابق، ص٢٧٦ .

١٠٣ - المرجع نفسه ، ص٢٧٦ .

١٠٤ - ينظر: هومل، فرتز، التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، ضمن كتاب التاريخ العربي القديم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (؟) ص١٠٨ .

أهمية القيادة في بناء الجماعات

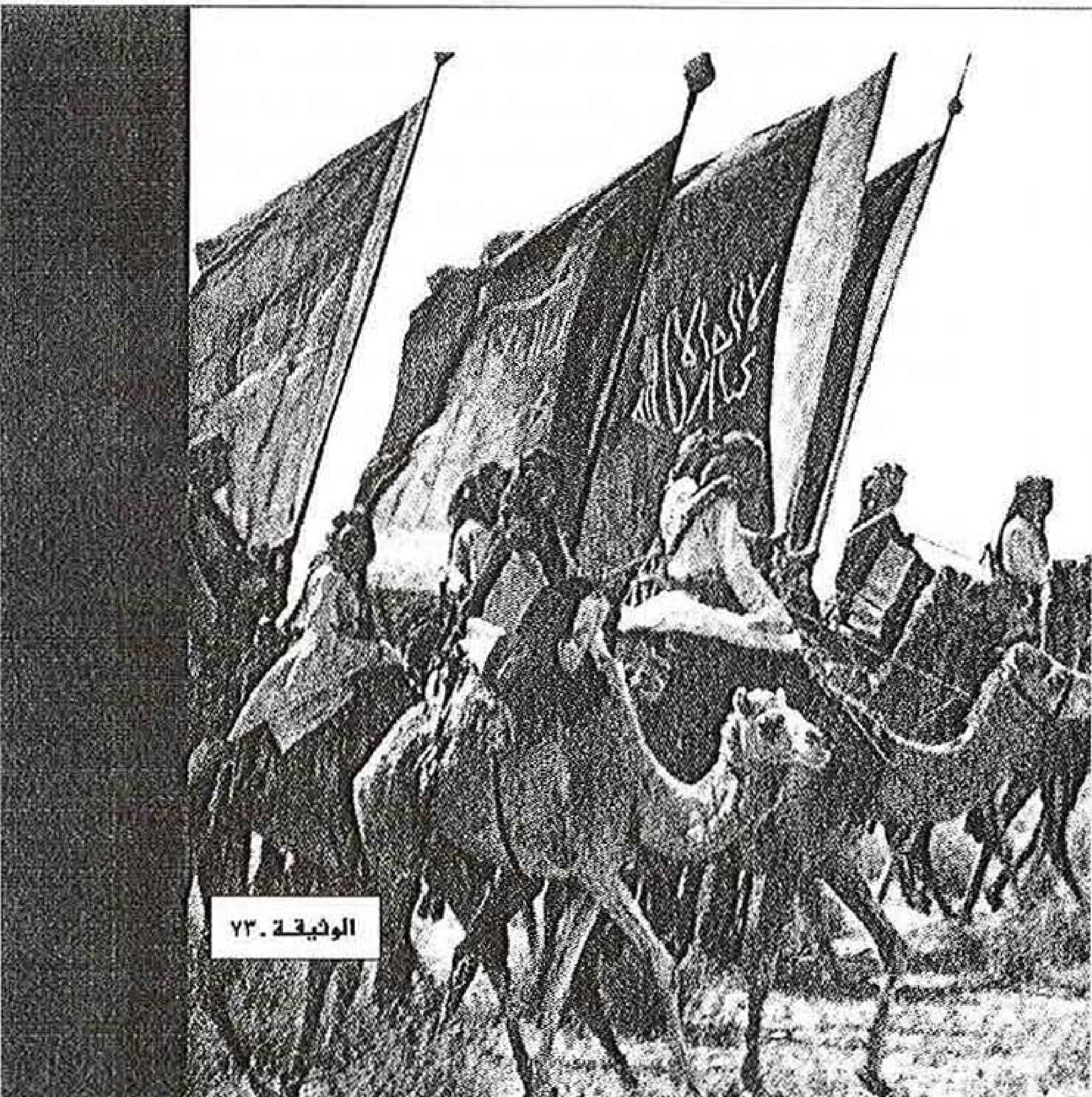
بقلم : الدكتور جاجان جمعة محمد الخالدي

يمثل موضوع القيادة أحد المجالات الأساسية التي نالت الكثير من العناية من الباحثين في مجال السلوك الإنساني . ومن هذا المنطلق تعددت المداخل العامة لدراسة القيادة، وأكد علماء النفس الاجتماعي أهمية القيادة والدور الكبير الذي تلعبه في بناء الجماعات المختلفة، كما يؤكدون ما للقائد من أهمية بالغة في تماسك تركيب الجماعة، وجو الجماعة، وأهدافها، وأيديولوجيتها، ومناشطها[١] . وللقيادة دور اجتماعي رئيسي يقوم به فرد (قائد) أثناء تفاعله مع غيره من أفراد الجماعة (الأتباع)، ويتسم هذا الدور بأن من يقوم به يكون له القوة والقدرة على التأثير في الآخرين وتوجيه سلوكهم في سبيل بلوغ هدف الجماعة[٢] .



... وتماسك القيادة

خالد بن الوليد



وجدير بالذكر أن العديد من الباحثين تناولوا موضوع القيادة من جانب الصفات الشخصية الواجب توافرها في القادة، ومازال هذا الاهتمام مستمراً إلى عصرنا هذا إلى درجة ما، ويعبر مثل هذا الاتجاه عن المبدأ الخاص بأن الرجال يخلقون المواقف، أو ما يعرف بمفهوم الرجل العظيم **The great man** . ويؤكد أصحاب نظرية الرجل العظيم على أن بعض الرجال يبرزون في المجتمع لما يتسمون به من قدرات ومواهب عظيمة وخصائص وعبقرية غير عادية تجعل منهم قادة أياً كانت المواقف الاجتماعية التي يواجهونها . ومن أوائل الدعاة لهذه النظرية فرانسيس جالتون **Ga lton**(٣) .

وهكذا تتعدد نظريات القيادة بتعدد البحث في سيكولوجية القيادة، ومن بين النظريات التي لاقت قبولاً من الباحثين وحظيت بدعم مزيد من الدراسات نظرية السمات **Trait Theory**، إذ ركزت البحوث المبكرة عن القيادة على دراسة شخصية القائد وسمات القائد وخصائصه الجسدية والعقلية والانفعالية والاجتماعية، وتقدم البحث العلمي حول سمات القادة (وخاصة سمات القائد الناجح) .

ومعلوم أن الباحثين استخدموا مناهج عدة في دراسة الشخصية وتحليل سماتها فهناك من استخدم المنهج التحليلي واعتمدوا المنحى الفردي وآخرون استخدموا المنهج التاريخي واتبعوا دراسة الحالة أو تتبع السيرة الذاتية . وخير شاهد على ذلك تلك الدراسات التحليلية التي أجراها ابراهام ماسلو عالم النفس المشهور خلال تناوله للسيرة الذاتية لشخصيات عالمية مشهورة مثل مهاتما غاندي ومارتن لوثر ومكسيم جوركي وانتهى من تلك الدراسات إلى صياغة نظرية تعرف بنظرية الحاجات .

واليوم نحاول نحن من خلال هذا ال جهد المتواضع تسليط الضوء على شخصية عربية مسلمة خلدها التاريخ، وتميز بقيادته وانتصاراته فكان حقاً أنموذجاً للبطولة ورمزاً استحق عن جدارة لقب البطل، إنه القائد العربي خالد بن الوليد .

فالدراسة الحالية امتداد لجهود الباحث في دراسة الشخصية باستخدام المنهج التحليلي من خلال المحاولة في تحليل النصوص التاريخية والوقوف على ما ورد في كتب التاريخ عن القائد البطل خالد بن الوليد لبيان أبرز السمات المميزة لشخصية هذا القائد العربي وانسجام تلك السمات مع ما ورد في البحوث والدراسات النفسية عن السمات المطلوبة في شخصية القائد .

لاسيما وأنه ورد في الانسيكلوبيديا الإسلامية عن خالد بن الوليد أنه قائد لامع ، موهوب القيادة، بفضله انتصر المسلمون عدة انتصارات، أعطاه محمد ﷺ لقب "سيف الله" كما وصفه المؤرخ اليوناني **Muller** في كتابه **Der Islam** بأنه شبيه نابليون، لم يأبه لشيء إلا للحرب، ولم يـرد أن يتعلم شيئاً سوى الحرب[٤] .

وفي ضوء ما تقدم، فإن البحث الحالي يرمي إلى الإجابة عن السؤالين الآتيين :

١ — ما هي السمات المميزة لشخصية القائد العربي خالد بن الوليدوالتي كان لها دور في نجاحه ؟

٢ — من أين جاءت تلك السمات ؟ وبعبارة أخرى ما هي العوامل المؤدية إلى ظهور تلك السمات في شخصية القائد العربي خالد بن الوليد ؟

وقبل أن نبدأ في عرض بعض النصوص الواردة في كتب التاريخ والتي تتحدث عن شخصية خالد بن الوليد لابد من الإشارة إلى أن الشخصية عبارة عن "تنظيم ديناميكي لمختلف سمات الفرد . والسمة هي الصفة الجسمية أو العقلية أو الاجتماعية أو الانفعالية الفطرية أو المكتسبة التي يتميز بها الفرد وتعبر عن استعداد ثابت نسبياً لنوع من السلوك .

والحقيقة عندما نحاول وصف شخصية فرد ما فإننا في أغلب الأحيان نتجه إلى تعيين أكثر صفاته تمييزاً، أي أهم خاصية عنده، وكثيراً ما تكون هذه السمات وقفاً على نوع المعاملة التي يلقاها الفرد من الآخرين علاوة على كونها ناتج ذاتي لحاصل التفاعل بين الخصائص التي يرثها من الأجيال السابقة(٥) .

نظريات الشخصية والقيادة

قدم كثير من المفكرين في ميدان علم النفس نظريات تخص الشخصية، ويمكن إيجازها في الآتي :

١ ـ النظريات النفسية الدينامية للشخصية :

ومن أشهر المؤيدين للمفاهيم النفسية الدينامية سيجموند فرويد وكارل يونج وألفرد إدلو وكارن هورنيوهاري ستاك سوليفان واربك اركسون . . .

٢ ـ النظريات الظاهراتية الشخصية :

ويركز أصحاب النظريات الظاهراتية في محاولة فهم "الذوات" ووجهات نظرها الفريدة في الحياة، وتعد نظرية كارل روجرز في الذات نموذجاً لهذه النظريات .

٣ – النظريات الاستعدادية في الشخصية :

وهنا نشير إلى نظرية السمات لريموند كات ل ونظرية الأنماط التي قدمها وليم شيلدون . وتعتمد هذه النظريات على وضع الناس في فئات تبعاً للأنماط أو السمات التي يحملونها .

٤ – النظرية السلوكية للشخصية :

وتعد نظرية ب. ف. سكنر نموذجاً للسلوكية المتطرفة، وكذلك فإن اتجاه ولتر ميشيل في التعلم الاجتماعي المعرفي يعد نموذجاً آخر في النظريات السلوكية[٦] .

أما في مجال القيادة فتتعدد نظريات القيادة بتعدد البحث في سيكولوجية القيادة، ومن بين النظريات السائدة :

١ – نظرية السمات Trait theory

تؤكد هذه النظرية على أن القائد الناجح يتميز بجملة سمات شخصية، وقد أسفرت نتائج البحوث والدراسات عن قوائم من سمات القائد الجيد منها السمات الجسمية والعقلية المعرفية والاجتماعية والانفعالية وأخرى عامة .

٢ – النظرية الوظيفية Functional theory

ويهتم أصحاب هذه النظرية بكيفية توزيع الوظائف القيادة في الجماعة، وعليه ينظر للقيادة على أنها وظيفة تنظيمية .

٣ – النظرية الموقفية Situational Theory

وتؤكد هذه النظرية على أن القائد لا يمكن أن يظهر إلا إذا تهيأت الظروف في المواقف الاجتماعية لاستخدام إمكانياته القيادية .

٤ – النظرية التفاعلية Interactional Theory

وتركز هذه النظرية على تفاعل القائد مع الأتباع وأن القيادة عملية تفاعل اجتماعي .

٥ – نظرية الرجل العظيم Great Man Theory

ويؤكد أصحاب هذه النظرية على أن بعض الرجال العظام يبرزون في المجتمع لما يتسمون به من قدرات ومواهب عظيمة وخصائص وعبقرية، تجعل منهم قادة(٧) .

السمات المميزة لشخصية خالد بن الوليد

لقد أسفرت نتائج البحوث والدراسات عن قوائم من سمات القائد الجيد، سنحاول أن نورد أهمها ونقف عند تلك السمات ومدى توافرها في شخصية البطل العربي خالد بن الوليد .

أولاً : السمات الجسمية :

نالت العوامل والصفات الجسمية قسطاً من الدراسة في موضوع القيادة، فصفة الطول والوزن كانت من بين الصفات التي درسها ستوجديل Stogdill في دراسته المفصلة عن القيادة(٨) وتشير نتائج الدراسات إلى أن القادة أميل إلى أن يكونوا أطول من الأتباع، وأثقل وزناً منهم خصوصاً حين يشترط في القائد أن يكون أقوى من أعضاء الجماعة وحين يكون هدف الجماعة هو القتال مع

غيرها، وهنا أيضاً نجد أن القادة أميل إلى أن يكونوا الأكثر حيوية وأوفر نشاطاً من الأتباع(٩) .

وإذا ما عدنا إلى النصوص التاريخية التي تناولت شخصية القائد العربي خالد بن الوليد فإننا نجد العديد من الأدلة التي تؤكد تمتع هذا القائد بالعديد من الصفات الجسمية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نقرأ :

"ذكر ابن أبي شيبة عن وكيع، عن إسماعيل، عن قيس قال : سمعت خالد بن الوليد يقول : اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما صبرت في يدي إلا صفيحة يمانية"(١٠) . وهذا النص يشير بوضوح إلى القدرات الجسمية والخصائص القوية التي انفرد بها، ولعل ما يوضح لنا قوته الجسمية واستعداداته منذ الطفولة "قصة المصارعة بينه وبين عمر بن الخطاب وهما غلامان وغلْبته عمر وكسره ساقه في هذه المصارعة"(١١) .

وقد ورد أنه كان طويلاً بائن الطول وأنه كان عظيم الجسم والهامة ومهيب الطلعة يميل إلى البياض(١٢) . وربما منحته تلك الصفات سمة القيادة والفروسية "فكانت عليه مخايل الفروسية منذ صباه الباكر، إذ رشحه أبوه لقيادة الخيل ولم يكن أكبر أبنائه، ورأيناه على قيادة الفرسان – فرسان قريش – وفي وقعة أحد التي أحاط فيها برماة المسلين من ورائهم ؛ فحلت الهزيمة بجيش المسلمين بعد انتصاره"(١٣) .

وتعود الصفات الجسمية والقدرة البدنية العالية إلى أن خالد قد تعلم في صباه كل ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب والفروسية وشمائل الرئاسة "وغير بعيد أنه تعود عيشة الشظف وراض نفسه على الخشونة عمداً في البادية ليصبر على مضانك الحرب وشدائد الجوع والظمأ حيثما تفرد عن موارد الزاد فقد جاء

في بعض الأحاديث أن خالداُكان يأكل الضب ويشتهيه كما يأكله الأعراب ويشتهونه، وهو أغنى إنسان في مكة[١٤] .

وهكذا نجد أن خالد بن الوليد امتلك من السمات الجسمية ما أعانه في أدواره القيادية ووضعه في مقدمة الفرسان "وقد ولي أعنة الخيل وشهد مع مشركيهم حروب الإسلام إلى عمرة الحديبية، وأسلم قبل فتح مكة مع أبي العاص سنة ٧هـ وكان قائداً عظيماً سيره أبو بكر في خلافته إلى العراق سنة ١٢هـ ففتح الحيـــرة وقسماً كبيراً من العــراق وتحول إلى بلاد الشـــام فصـــار أميراً بها"[١٥] .

ومما يشير أيضاً إلى سماته الجسمية أن "قريش كانت تعتمد عليه في غاراتها وحروبها، وتعتز برجولته إذا ما قورنت الرجال فيما بينها، فكان خالد سنداً لها وعضداً وحامياً، تضرب له القبة، ويعهد إليه بالأعنة . أما القبة فقد كانت قريش تضربها لتجمع ما تجهز به جيشها من أموال ومؤن وأعتدة، وأما الأعنة فقد كانت تعهد بها إلى خالد بصفته مقدماُعلى فرسانها ورجالاتها كافة في المعارك والحروب"[١٦] .

ثانياً : السمات العقلية المعرفية :

أجري العديد من الدراسات للربط بين القيادة والذكاء، وتوافق أغلب هذه الدراسات على أن القادة أعلى مستوىً في عنصر الذكاء، ومن الطبيعي أن نجد أنه إذا كانت الجماعة تعمل في مجال تظهر فيه الحاجة إلى حل المشاكل فإن العناصر التي تساعد على هذه المشاكل غالباً ما يكون المجال مفتوحاً أمام المناصب القيادية[١٧] . وهكذا نجد أن القادة أكثر تفوقاً من ناحية الذكاء العام

من الأتباع، وكذلك لوحظ أن القائد يميل إلى أن يكون أغنى ثقافة وأثرى معرفة وأوسع أفقاً وأبعد نظراً وأنفذ بصيرة وأقدر على التنبؤ بالمفاجآت والاستعداد لها وأحسن تصرفاً وأعلى مستوىً في الإدراك والتفكير، وأفضل من حيث الطلاقة اللفظية وأحكم في الحكم على الأشياء وأسرع في اتخاذ القرارات"[١٨] .

وبالعودة إلى الأحكام الواردة في كتب التاريخ نجد أن القائد العربي تميز بامتلاكه سمات عقلية ومعرفية في شخصيته، تلك السمات التي منحت هذا الرجل مؤهلات القيادة، ويمكن أن نوجز بعضاً منها في الآتي :

١ – القدرة على التعبير الكلامي (الطلاقة اللفظية) : تبين من البحث الذي قام به ستوجديل أن القدرة على الاتصال الشفهي تؤخذ في الاعتبار كصفة من الصفات القيادية، ومن هنا توصل الباحثون إلى أن القدرة على التحدث خاصة عندما تتطلب المواقف ذلك، تعبر عن أحد المتغيرات الهامة للقيادة، وقد أكدت الدراسات الأخرى هذا الافتراض"[١٩] .

والآن في دراستنا لشخصية القائد العربي خالد بن الوليد نجد هذه السمة بوضوح في شخصيته القيادية، وتتمثل في إمكانياته في الخطابة – فعلى سبيل المثال لا الحصر – عندما تهيب المسلمون طروق المفازة من العراق إلى الشام خاطبهم قائلاً : "لا يختلفن هديكم، ولا يضعفن يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية، والأجر على قدر الحسنة، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكترث لشيء يقع فيه مع معونة الله له"[٢٠] . فتحمس أصحابه وقالوا : أنت رجل قد جمع الله لك الخير، فشأنك[٢١] .

وكما تميز بقدرته على إقناع الآخرين والتأثير في الأتباع وإثارة الحماس لديهم مما يدخل في القدرة على التعبئة . ويتضح ذلك بصورة جلية في دعوته إلى التعبئة أثناء مواجهة الروم، إذ قال : "ولقد علمت أن الدنيا قد فرقت بينكم، فالله الله ! فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان، لا ينتقصه منه إن دان لغيره من أمراء الجنود، ولا يزيده عليه إن دانوا له، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ! ولا عند خليفة رسول الله ﷺ ، هلموا ! فإن هؤلاء قد تهيأوا . وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلموا فلنتعاون الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد، حتى تتأمروا كلكم، ودعوني إليكم اليوم .

فأمروه، وأصبح خالد أمير المسلمين في ذلك اليوم، وخرجت الروم في تعبئة لم ير الراءون مثلها قط، وخرج خالد في تعبئـة لم تعبئها العرب من قبل ذلك"[٢٢] .

وهناك العديد من النصوص التاريخية التي تشير إلى إمكانية الحوار لدى خالد بن الوليد، تلك الصفة التي يحتاجها القائد في بعض المواقف نذكر منها : ما روى أبو مخنف، عن أبي المثنى الوليد بن القطامي، وهو الشرقي بن القطامي الكلبي : "إن عبد المسيح استقبل خالداً، وكان كبير السن، فقال له خالد : من أين أقصي أثرك يا شيخ ؟ فقال : من ظهر أبي . قال فمن أين خرجت ؟ قال من بطن أمي . قال ويحك في أي شيء أنت ! قال : في ثيابي، قال : ويحك على أي شيء أنت ؟ قال : على الأرض، قال : أتعقل ؟ قال : نعم، وأقيد . قال : ويحك ! إنما أكلمك بكلام الناس . قال : وأنا إنما أجيبك جواب الناس . قال : أسلم أنت أم حرب ؟ قال : بل سلم، قال :

فما هذه الحصون ؟ قال بنيناها للسفيه حتى يجيء الحليم . ثم تذاكرا الصلح فاصطلحا على مائة ألف يؤدونها في كل سنة"[٢٣] .

٢ – حسن التصرف : إن من أبرز السمات التي تميزت بها شخصية خالد بن الوليد هي سمة التأمل وتقدير الموقف، فكان يأخذ بنظر الاعتبار الروح المعنوية لأصحابه، ويدرس حالاتهم النفسية، والنص الآتي يشير إلى ذلك بوضوح، إذ :

أقبل خالد بالناس حتى مروا بثابت بن أقرم قتيلاً، فلم يفطنوا له حتى وطئته المطي بأخفافها، فكبر ذلك على المسلمين، ثم نظروا فإذا هم بعكاشة بن محصن صريعاً، فجزع لذلك المسلمون وقالوا سيدان من سادات المسلمين، وفارسان من فرسانهم !

ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع، فآثر ألا يواجه بهم عدوهم حتى تطمئن نفوسهم، فسأل عدياً : ما الرأي ؟ فقال : الرأي أن إليَّ فتقيم عندي أياماً في طيء، حتى أبعث إلى كل قبائلها، فأجمع لك منهم أكثر مما معك، ثم أصحبك إلى عدوك"[٢٤] .

ومما يؤكد حسن تصرفه أيضاً وسعة أفقه اعتماده على الدليل والاستعانة برأي الآخرين، فلم يكن متسلطاً برأيه، وخير شاهد على ذلك ما يروى عن دليلـــه، إذ كان له دليل يقــال له رافــع بن عميــر الطـائي ساعـده في الموقف الآتي :

"وكان خالد لما ركب المفازة عمد إلى الرواحل فأرواها من الماء، ثم قطع مشافرها وأجرها لئلا تجتر فتعطش، ثم استكثر من الماء وحمله معه، فنفد في

طريقه، فجعل ينحر تلك الرواحل راحلة راحلة ويشرب وأصحابه الماء من أكراشها"[٢٥] .

٣ — **القدرة على اتخاذ القرار** : وتميزت شخصية خالد بن الوليد بسمة معرفية أخرى هي القدرة على اتخاذ القرار وعقد المعاهدات، ومن الأمثلة في هذا الجانب والذي يوضح لنا أيضاً القدرة على الكتابة حين دعا خالد بدواة وقرطاس فكتب :

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها : أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية"[٢٦] .

٤ — **سمة المرونة في التفكير** : بالإضافة إلى ما تميز به خالد بن الوليد من قوة ورباطة جأش فإنه في الوقت نفسه كان رقيقاً وسمحاً ولم يكن متصلباً في فكره، بل على العكس اتسم بالمرونة والقدرة على التغير في الرأي والاتجاه، ومما يؤكد ذلك ما رواه "العوام بن حوشب، عن سلمة بن كهيل، عن علقمة، عن خالد بن الوليد قال : كان بيني وبين عمار كلام، فأغلظت له، فشكاني إلى رسول الله ﷺ ، فقال : من عادى عماراً عاداه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله، فخرجت، فما شيء أحب إلي من رضاء عمار، فلقيته فرضي"[٢٧] .

٥ — **سمة الذكاء ونفاذ البصيرة** : لقد عرف خالد بن الوليد بشجاعته وجرأته وكذلك بأحكامه وخططه التي تنم عن الذكاء العالي والقدرة على التنبؤ، ويتضح ذلك فيما صنعه عندما تولى قيادة الجيش الإسلامي بعد مقتل

ابن رواحة إذ أقدم على الارتداد المأمون "وهو أصعب من النصر في بعض المآزق، لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة له واحتمال الشدة فيه، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو في أضعف الموقفين، إلا أن تكون له خبرة بالقيادة تكافئ الرجحان في قوة العدو الذي يرتد بين يديه، وأول شيء ينبغي أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع في روع عدوه أنه لا ينوي الارتداد بل ينوي الهجوم أو يقصد إلى الحيلة، فصمد في الميدان حتى المساء، ثم بدل مواقف الجيش تحت الليل، فنقل الميمنة إلى الميسرة ونقل الميسرة إلى الميمنة وجعل الساقة في موضع المقدمة والمقدمة في موضع الساقة، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عند طلوع الصباح"[٢٨].

ويعتبر خالد بن الوليد أول قائد أدخل نظام التعبئة في الجيش الإسلامي طبقاً للأساليب التي كانت متبعة في الجيش الرومي، فقد خرج يوم اليرموك في تعبئة لم تعبئها العرب من قبل ذلك"[٢٩].

كما يشير النص الآتي أيضاً إلى القدرة العقلية العالية وإمكانية التخطيط الذي تميز به البطل العربي خالد بن الوليد فأصبح قائداً تاريخياً ونموذجاً للقيادي الذي يصنع الخطط : "كان يصنع الخطة في موضعها ساعة الحاجة إليها، فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس، وكان يحارب بالكمين والكمينين كما يحارب أحياناً بغير كمين، وكان يستخدم التورية والمباغتة والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعي والأحوال"[٣٠].

ثالثا : سمات اجتماعية :

إن تأثير خالد بن الوليد في الآخرين كان واضحاً ويبدو لنا ذلك بصورة جلية أنه :

"عندما استشهد ابن رواحة، وأخذ ثابت بن أقرم من بني العجلان اللواء في تلك اللحظة ونادى في أصحابه : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم" قالوا : "أنت" قال : "لا . . ما أنا بفاعل" . . فاتفقت الكلمة على خالد بن الوليد، فإذا هو يتولى القيادة في حينها ويصنع لساعته خير ما يصنع في ذلك الحين"(٣١) .

إن اتفاق الجميع على خالد بن الوليد قائداً لهم أكبر دليل على مكانة خالد بينهم وقوة تأثيره من خلال ما يملكه من سمات اجتماعية تؤهله للقيادة، "فالقيادة تنبع من داخل الجماعةوتظهر تلقائياً غالباً، وتكون مسبوقة بعملية تنافس عليها من قبل عدد من أعضاء الجماعة، والتفاعل الدينامي بين الأفراد شرط أساسي لظهور القيادة، وسلطة القائد يخلعها عليه تلقائياً أفراد الجماعة الذين يختارونه كقائد ويصبحون أتباعاً له"(٣٢) .

وعندما نتحدث عن السمات الاجتماعية لابد أن نأخذ بنظر الاعتبار مسألة الاتصال، ذلك لأن إجادة التواصل مع القيادة الأعلى دليل على تمتع القائد بمؤهلات وكفاءة اجتماعية، ويتبين لنا ذلك من إمكانيات خالد بن الوليد وإجادته التواصل مع القيادة الأعلى المتمثلة في شخص الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذه سمة بارزة وهي سمة ضرورية للقائد الناجح الذي يعرف كيف يتلقى التعليمات وينقل الصورة عن مجريات الأحداث من وإلى القيادة، فالقائد الناجح لا يحتاج فقط .. إلى السيطرة والقدرة على توجيه أتباعه بل إنه بحاجة إلى إمكانية التواصل السليم مع مرءوسيه، وهذا واضح في التزام القائد العربي خالد بن الوليدبالتعليمات والأوامر الصادرة إليه وتنفيذها بصورة سليمة ودقيقة وفي نفس الوقت إعطاؤه للصورة، ويعبر ذلك أيضاً عن الالتزام والامتثال ويمكننا ملاحظة هذه الجوانب في كتاب خالد إلى رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد النبي رسول الله، من خالد بن الوليد،

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد يا رسول الله: فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا قبلت منهم، وعلمتهم معالم الإسلام، وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم.

وإني قدمت إليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ وبعثت فيهم ركبانا: يا بني الحارث أسلموا تسلموا. فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم، آمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام، وسنة النبي ﷺ حتى يكتب إلي رسول الله، والسلام عليك يا رسول الله"(٣٣).

رابعاً: سمات خلقية:

بالإضافة إلى السمات الجسمية والعقلية والاجتماعية التي تميز بها القائد العربي خالد بن الوليد عن غيره من القادة، فإنه كذلك تميز في سماته الخلقية، تلك السمات التي تعبر عن رفعة وسمو المبادئ التي حملها هذا البطل التاريخي فكان بذلك نموذجاً رائعاً في القيادة، ولعل ذلك أمر واضح وبإمكان أي باحث أن يستدل عليه في العديد من المراجع والأدبيات التي تناولت شخصية خالد بن الوليد ومآثره التاريخية، ونذكر منها على سبيل المثال كتاب خالد لأهل الحيرة وما تضمنه من جوانب إنسانية تشير بوضوح إلى السمات الخلقية لهذا القائد العظيم والتي اكتسبها من مبادئ الإسلام، إذ ورد في كتابه لأهل الحيرة:

"وجعلت لهم : أيما شيخ ضعف عن العمل، أو اصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله . ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم . وأي عبد من عبيدهم أسلم أقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم في غير الوكس ولا تعجيل، ودفع ثمنه إلى صاحبه"[٣٤] .

خامساً : سمات انفعالية :

تؤكد الدراسات على أن القادة يتصفون بالثبات الانفعالي والنضج الانفعالي وقوة الإرادة والثقة بالنفس ومعرفة النفس وضبط النفس، ومن الدراسات التي أكدت الفرضية القائلة بأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين القيادة والثقة بالنفس دراسة دريك عام ١٩٤٤ التي أظهرت أن هناك درجة عالية من الارتباط بين القيادة والثقة بالنفس[٣٥] .

وإذا ما رجعنا إلى قيادة خالد بن الوليد نرى سمة الثبات وقوة الإرادة التي تميزت بها شخصية هذا البطل العربي بوضوح، وكيف لا وقد شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة، فأبلى فيها، وبعثه رسول الله ﷺ إلى العزى وكان بيتاً عظيماً لقريش وكنانة ومضر تبجله فهدمها وجعل يقول :

ياعز كفرانك اليوم لاسبحانك إني رأيت الله قـد أهـانك

ولم يزل من حين أسلم يوليه رسول الله ﷺ أعنة الخيل فيكون في مقدمتها في محاربة العرب[٣٦] .

كما أن سلوك خالد بن الوليد أثناء الشدائد وفي الأزمات والمواقف الصعبة أثناء المعارك يدل بوضوح على ضبط النفس، تلك السمة التي تعد ضرورية للقائد الناجح لأنها تعينه على التصرف السليم في كل خطوة وتحت أي موقف يواجهه، والنص الآتي يوضح لنا ذلك :

"كان يعتمد على قوة الإيمان وهمة الأمل، فيتعهد جيشه بالعظات قبل القتال وفي أثناء القتال، ولا يفوته وهو مشغول بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف بين الصفوف للتدبير والتشجيع فيعمل ويقول القول الذي هو ضرب من العمل، فإذا قال : "إن الصبر عز وإن الفشل عجز وإن الصبر مع النصر فليس هي أصداء تمر بالهواء ولكنها هي العز والصبر ماثلان للعيان يسريان بالقدوة منه إلى كل مسمع وجنان"[٣٧] .

ولعل ثقته العالية بنفسه وقوة إرادته سمات كانت وراء تفوقه منذ بدايته، ولهذا كانت إليه القبة والأعنة في الجاهلية، فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان يكون [المقدم] على خيول قريش في الحروب"[٣٨] .

كما أن تصرف خالد في المعركة أثناء استلامه لأمر عزله عن الإمارة العامة على جند الشام والقتال على أشد ما يكون بين المسلمين والروم، ذلك التصرف الذي انتهى بالمعركة إلى نصر المسلمين نصراً مؤزراً يدل على أن هذا القائد البطل قد منح من الخصائص النفسية والقوى المعنوية قدراً لا يقدر في الحياة إلا لأفذاذ العباقرة الموهوبين، فأي قوة نفسية هذه التي مكنت خالداً من ضبط أعصابه بعد أن عرف أنه معزول عن الإمارة ومؤمر عليه بعد أن كان أميراً ليس فوقه أمير، والنصر بين يديه لو شاء لأدار به وجه التاريخ ؟! إنها قوة الإيمان وقوة العقيدة المسلمة التي لا تدع في قلب صاحبها حظاً لغير الإخلاص"[٣٩] .

سادساً : سمات عامة :

وتشير الأدبيات التي اهتمت بموضوع القيادة إلى أن القائد الناجح يتميز بجملة صفات عامة، منها حسن المظهر المعقول، والمحافظة على الوقت، ومعرفة العمل والإلمام به والافتخار به، والأمانة وحسن السمعة، والتمتع بعادات شخصية حسنة، والتمسك بالقيم الروحية والإنسانية والمعايير الاجتماعية والتواضع[٤٠].

وقارئ التاريخ يلاحظ أن هذه الصفات كلها اجتمعت في شخص البطل خالد بن الوليد، ومنحته سمة القيادة ومما يؤكد ذلك موقف النبي ﷺ من خالد ويتجلى ذلك فيما رواه حيان بن أبي جبلة : "عن عمرو بن العاص، قال : ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد أمراً في حربه منذ أسلمنا"[٤١].

وإن منحه لقب سيف الله في وقت مبكر ومن قبل النبي ﷺ لدليل على امتلاكه سمات قيادية لم تكن متوفرة في غيره من الصحابة الكرام، وقد صحب خالد النبي ثلاث سنوات، وعهد إليه النبي في كثير من الأعمال الصغيرة وأشركه في بعض الأعمال الكبيرة : ومنها غزوة مؤته وغزوة حنين وسرية بني جذيمة .

إن معرفة النبي ﷺ بإمكانات القائد خالد بن الوليد وما تميز به من سمات هو الذي دفع النبي الكريم إلى منح خالد لقب (سيف الله) واستحق هذا اللقب الذي لا يعلوه لقب في الإسلام، وعرف النبي قبل الحادية عشرة للهجرة أنه حقيق بذلك اللقب على أوفى مداه، وسماه به قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للإسلام جزيرة العرب ويضم إليها العراق والشام . وهي الأعمال الجسام التي من أجلها يدعى اليوم سيف الإسلام[٤٢].

كما أن تقدير النبي ﷺ خالدا بن الوليد لم يكن تقدير المجاملة لمكانة أو لما يرجى من قومه الأقوياء بني مخزوم، فانه عليه السلام لم يجامله في وصفه

الذي طابقته حوادث الأيام، بل كان تقديره مبنياً على معرفته بخصائص خالد وسماته القيادية، وكيف لا والنبي لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى، فكان يعرف حقاً أن شروط القيادة متوفرة في شخصية البطل خالد بن الوليد .

ويتضح لنا عزم خالد بن الوليد وإصراره على النصر وقوة إيمانه في إنذاره للذين نجوا من جيش ميناس وفروا نحو قنسرين ليعتصموا بها، فأنذرهم خالد قائلاً لهم : "والله لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا"(٤٣) .

ويبقى السؤال من أين جاءت هذه السمات ؟ والإجابة على مثل هذا السؤال يتطلب تتبع سيرة حياة القائد التاريخي والوقوف على أبرز العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته، وذلك ليس بالأمر الصعب، لاسيما وأن كتب التاريخ زودتنا بالكثير من المعلومات التي تتعلق بالبيئة التي عاش فيها والأحداث التي عاصرها .

وإذا كانت الأدبيات السيكولوجية تشير إلى أن الشخصية حصيلة أو نتاج لتفاعل العوامل الوراثية مع العوامل البيئية، وبالتالي فإن نمط الشخصية والسمات التي تحملها تتوقف إلى حد بعيد على تلك العوامل وتفاعلها، وفي بحثنا الحالي نجد أن العديد من العوامل الإيجابية توافرت في بيئة خالد بن الوليد وأدت إلى تكوين ملامح البطولة في شخصيته، وإذا توقفنا عند أثر العوامل الأسرية والبيئية في نمو الشخصية وتطورها نلاحظ أن نشأة خالد بن الوليد كانت في أعرق البيوت وأعلاها وأشرفها وأغناها وكل ذلك كان له دور في تكوين الصفات التي تميز بها . فكان جده المغيرة بن عبد الله الذي كان الرجل من بني مخزوم يؤثر أن ينسب إليه فيسمى المغيري، وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى، وكان عمه هشام قائد بني مخزوم في حرب الفجار، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام، ولم تقم سوقاً بمكة ثلاثاً لحزنها عليه، وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب في

زمانه، له بيت للضيافة يأوي إليه من يشاء بغير استئذان، وكان عمه أبو حنيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة كما أشار النبي ﷺ قبل الدعوة الإسلامية[٤٤] .

ومن هنا فإن نشوء خالد بن الوليد في أسرة متميزة في عطائها وكرمهاوشجاعتها وهيبتها كان له تأثير في نشوء وارتقاء شخصية البطل الخالد وامتلاكه السمات الفريدة التي أصبحت دعائم القوة في شخصيته القيادية .

وبعبارة أخرى، فإن الأسباب المؤدية إلى ظهور السمات التي سبق ذكرها والتي جعلت من شخصية خالد بن الوليد ومآثره نموذجاً للقيادة في التاريخ، تكمن في العوامل الوراثية والبيئية، فأخذ الذكاء بالوراثة من أبويه وتعلم الزعامة من التقليد فقد كان أبوه الرأس بين الرءوس والزعيم بين الزعماء وكانت له في بعض نواحي خُلقه وعقله لمحات من تلك المواهب التي تجلت بعد ذلك في عبقرية ولده العظيم . وكان أغنى أبناء زمانه في صفوف الثراء المعروفة بينهم كافة : الذهب والفضة والبساتين والكروم والتجارة والعروض، والخدم والجواري والصيد، وسمي من أجل ذلك بالوحيد، ولقب من أجل ذلك بريحانة قريش، ولكبريائه في جوده أو لجوده في كبريائه كان ينهي أن توقد نار غير ناره في منى لإطعام الحجيج[٤٥] .

ومن هنا لم يعرف خالد بن الوليد الحاجة أو العوز، بل استمر طول حياته يبحث في سلوكه عن القيم الروحية، فكان قائداً نزيهاً، بعيداً عن الكسب المادي، إذ روى جويريه : "عن نافع قال : لما مات خالد لم يدع إلا فرسه وسلاحه وغلامه، فقال عمر : رحم الله أبا سليمان، كان على ما ظنناه به"[٤٦] .

وكذلك فإن الخبرات التي اكتسبها في صباه وفتوته كان لها دور في منح خالد بن الوليد القدرة على القيادة، وتلك القدرة تجسدت بشكل واضح في

مبادرته لأخذ الراية وقيادته لصفوف المسلمين عند غياب القائد، فعندما "استشهد أمراء رسول الله ﷺ الثلاثة : مولاه زيد، وابن عمه جعفر ذو الجناحين، وابن رواحة، وبقي الجيش بلا أمير، فتأمر عليهم في الحال خالد وأخذ الراية وحمل على العدو فكان النصر، وسـماه النبي ﷺ سيف الله، فقال : "إن خالداً سيف سله الله على المشركين"[٤٧] .

استنتاج وتعليق :

حظي منهج الدراسة الفردية باهتمام كثير من علماء النفس منذ بداية القرن العشرين وحتى الآن، ورغم اختفاء مصطلح الدراسة الفردية مدة تزيد على عشرين عاماً إلا أنه عاد للظهور مرة أخرى وبقوة، بل إن قيمته العلمية قد زادت ويشير بيرفن Pervin ١٩٨٥ إلى أنه أصبح طوق النجاة لكثير من الباحثين مهما تباينت انتماءاتهم النظرية، ويرى سنجر وكوليجيان Singer & Kolligian ١٩٨٧م أنه زاد الاهتمام بالخبرة الذاتية في دراسة الشخص كما يشير كل من كونوي Conway ١٩٩٠م وبايرن وهيدلاند Birren & Hedland ١٩٨٧م إلى زيادة الاهتمام بدراسة السير الذاتية للأفـراد في دراسـة الشخصية"[٤٨] .

ومن هذا المنطلق جاء اهتمامنا بدراسة السمات الشخصية للبطل العربي خالد بن الوليد ومحاولة التعرف على أبرز السمات التي ميزت شخصية هذا القائد ومنحتها القدرة القيادية والتي تمثلت في السمات الجسمية والعقلية المعرفية والسمات الاجتماعية والخلقية بالإضافة إلى سمات أخرى عامة, وباستخدام المنهج التحليلي وتتبع النصوص الواردة في كتب التاريخ تمكنا من تشخيص بعض السمات, وفي الوقت نفسه لاحظنا أن العوامل التي ساعدت على تكوين واكتساب تلك السمات تكمن في الظروف البيئية التي أحاطت شخصية خالد بن الوليد, ومحاولاته الشخصية في الاستفادة من المقومات المتوفرة في محيطه, وتعلم الدروس, حيث عود نفسه على تحمل المشاق والظروف الصعبة رغم امتلاكه كل مقومات العيش الرغيد, لكنه لم يرض بالخمول والكسل بل كان يتحدى المواقف ويواجه الصعاب ويحمل نفسه المتاعب من أجل السمو والارتقاء . وكان نتيجة ذلك أن اكتسب السمات التي

دفعت به إلى مقدمة الصفوف واجتياز أصعب الظروف وأعقدها, وخير دليل على ذلك قطع المفـازة من حد العراق إلى أول الشـام في خمس ليـال في عسكر معه .

وأخيراً, هناك كلمة حق – في صميم الدراسة أيضاً – يجب أن تسجل في حق هذا القائد البطل الذي قدم للعرب والإسلام الكثير من الإنجازات والمآثر البطولية, فاستحق لذلك المجد, وفي الوقت نفسه يدعونا هذا إلى التساؤل عن كيف يمكننا توظيف السمات المميزة لشخصية خالد بن الوليد في مجال تربية الجيل الجديد وتنشئة الأفراد ؟ وإذا كان خالد نموذجاً للقيادة فما هو السبيل للاقتداء بهذا النموذج الرائع ؟

وباختصار نقول أن هناك الحاجة إلى مزيد من الدراسات النظرية عن شخصية خالد بن الوليد للكشف عن معالم شخصيته وتقديم ذلك في صورة أطر نظرية ومن ثم البحث عن أساليب عملية لتطبيق نموذج قيمي مستمد من القيم التي تحلى بها بطل العروبة والإسلام . وعلينا أن نحتذي به ونجعله مثلنا الأعلى لكي نبدأ ونتواصل ونستيقظ .

د. جاجان جمعة محمد الخـالدي

جامعة الموصل – كلية المعلمين

الهوامش

١ – فهمي والقطان : علم النفس الاجتماعي, ص٢٠٤ .

٢ – زهران : علم النفس الاجتماعي, ص٢٦٩ .

٣ – زهران : المصدر نفسه, ص٢٧٤ .

٤ – Ency. P. 878-879 .

٥ – حقي, ألفت محمد : علم النفس المعاصر, ص٥٧ .

٦ – دافيدوف, لندال : مدخل علم النفس, ص٥٨٢–٦٠٧ .

٧ – زهران, حامد عبد السلام : علم النفس الاجتماعي, ص٢٧٠ .

٨ – العمري, إبراهيم : الإدارة, دراسة نظرية وتطبيقية, ص٣٧٣ .

٩ – زهران, حامد عبد السلام : مصدر سابق ص٢٧١ .

١٠ – أبي عمر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب, ص٤٢٩ .

١١ – العقاد, عباس محمود : العبقريات الإسلامية, ص٧٨٦ .

١٢ – العقاد, عباس محمود : المصدر نفسه, ص٧٨٧ .

١٣ – العقاد, عباس محمود : المصدر نفسه, ص٧٨٦ .

١٤ – العقاد, عباس محمود : المصدر نفسه, ص٧٨٧ .

١٥ – القلقشندي, نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب, ص٢٢٩ .

١٦ – سويد, ياسين : معارك خالد بن الوليد, ص١٣٠ .

١٧ – الغمري, إبراهيم : مصدر سابق, ص٣٧٤ .

١٨ – زهران, حامد عبد السلام, مصدر سابق, صص٢٧١ .

١٩ – الغمري, إبراهيم : مصدر سابق, ص٣٧٤ .

٢٠ – العقاد, عباس محمود : عبقرية خالد, ص١٧٠ .

٢١ – إبراهيم, محمد بن فضل : أيام العرب في الإسلام, ص٢٠٦ .

٢٢ – إبراهيم, محمد أبو الفضل, مصدر سابق, ص٢٠٩ .

٢٣ – البلاذري, أحمد بن يحيى بن جابر : كتاب فتوح البلدان, ص٢٩٧ .

٢٤ – إبراهيم، محمد أبو الفضل، مصدر سابق، ص١٥٠ .
٢٥ – البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر،مصدر سابق، ص١٣١ .
٢٦ – المصدر نفسه، ص١٤٤ .
٢٧ – الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان : سير أعلام النبلاء، ص٢٩٧ .
٢٨ – العقاد، عباس محمود : العبقريات الإسلامية، ص٨٠٥-٨٠٦ .
٢٩ – ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ص٤١١ .
٣٠ – العقاد، عباس محمود : عبقرية خالد، ص١٥٥ .
٣١ – العقاد، عباس محمود : العبقريات الإسلامية، ص٨٠٥ .
٣٢ – زهران، حامد عبد السلام، مصدر سابق، ص٢٦٩ .
٣٣ – حميـد الله، محمد : مجموعة الوثائق السياسية من العهد النبوي، والخلافة الراشدة، ص١٣١ .
٣٤ – حميد الله، محمد، المصدر نفسه، ص٣١٧ .
٣٥ – الغمري، إبراهيم، مصدر سابق، ص٣٧٥ .
٣٦ – أبي عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البـر : الاستيعاب في معرفــة الأصحاب، ص٤٢٨ .
٣٧ – العقاد، عباس محمود : عبقرية خالد، ص١٥٦ .
٣٨ – أبي عمر، مصدر سابق، ص٤٢٧ .
٣٩ – سويد، ياسين، مصدر سابق، ص١٤٣ .
٤٠ – زهران،حامد عبد السلام، مصدر سابق، ص٢٧٢ .
٤١ – الذهبي، شمس الدين، مصدر سابق، ص٢٦٥ .
٤٢ – العقاد، عباس محمود، العبقريات الإسلامية، ص٨٠٢ .
٤٣ – سويد، ياسين : معارك خالد بن الوليد، ص٢٩٢ .
٤٤ – العقاد، عباس محمود : المصدر نفسه، ص٧٧٩-٧٨٠ .
٤٥ – العقاد، عباس محمود : العبقريات الإسلامية، ص٧٨٣ .
٤٦ – الذهبي، مصدر سابق، ص٢٧٦ .
٤٧ – الذهبي، مصدر سابق، ص٢٦٤ .
٤٨ – شلبي، أحمد مهدي : النسبية النفسية – منحى معرفي فردي في دراسة الشخصية، ص١١٧ .

المصادر

١ – إبراهيم, محمد أبو الفضل وعلي محمد البجاوي :
أيام العرب في الإسلام, ط ٢, دار إحياء الكتب العربية, ١٩٦١م .
٢ – ابن الأثير :
الكامل في التاريخ, ط ٢, دار صادر, بيروت, ١٩٦٥ .
٣ – أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر :
الاستيعاب في معرفة الأصحاب, (القسم الثاني), تحقيق علي محمد البجاوي, مكتبة نهضة مصر, القاهرة (ب. ت.) .
٤ – البلاذري, أحمد بن يحيى بن جابر :
كتاب فتوح البلدان, تحقيق صلاح الدين المنجد, مكتبة النهضة العربية, القاهرة .
٥ – حقي, ألفت محمد :
علم النفس المعاصر, منشأة المعارف, الإسكندرية, ١٩٨٠ .
٦ – حميد الله محمد :
مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة, ط ٣, دار الإرشاد, بيروت, ١٩٦٩ .
٧ – دافيدوف, لندال :
مدخل علم النفس, ط ٢, دار ماكجروهيل, القاهرة, ١٩٨٣ .
٨ – الذهبي, شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان :
سير أعلام النبلاء, تحقيق : صلاح المنجد, معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية, بالاشتراك مع دار المعارف بمصر .

٩ – زهران, حامد عبد السلام :

علم النفس الاجتماعي, ط ٤, عالم الكتب, القاهرة, ١٩٧٧ .

١٠ – سويد, ياسين :

معارك خالد بن الوليد, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت, ١٩٧٣ .

١١ – شلبي, محمد أحمد :

النسبية النفسية : منحى معرفي في دراسة الشخصية, دار الثقافة للطباعة والنشر, القاهرة, ١٩٩١ .

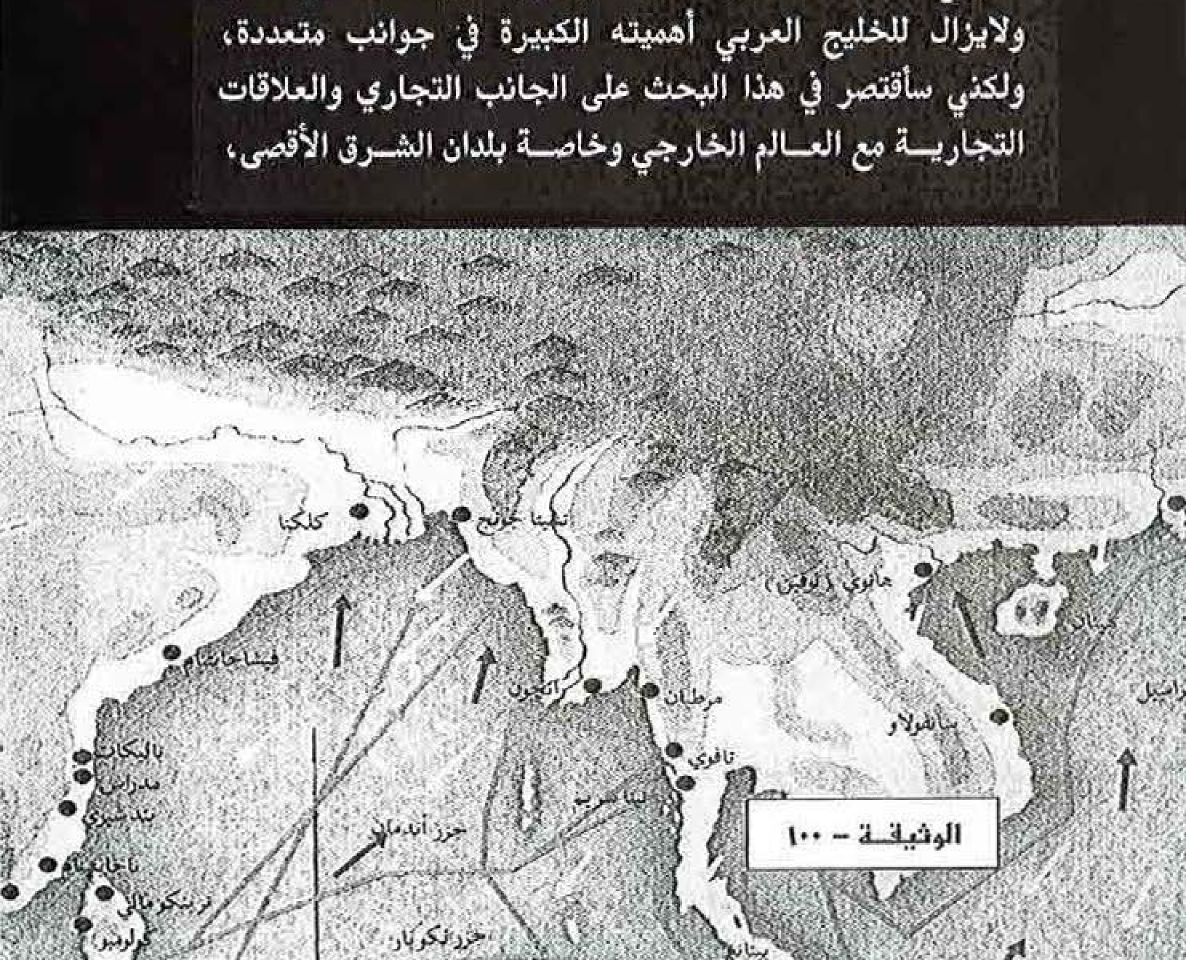
١٢ – العقاد, عباس محمود :

العبقريات الإسلامية, ط ٢, منشورات دار الآداب, بيروت, ١٩٦٨ .

العلاقات التجارية بين دول

وأثر ذلك في بعض الجوانب

إن أهمية الخليج العربي ومدنه ليست مقصورة على عصرنا الحالي، وهو عصر استخراج البترول من البلدان العربية الواقعة عليه والمحيطة به، ولكن هذه الأهمية ترجع إلى قرون موغلة في التاريخ، فمنذ العصور القديمة وحتى عصرنا الحاضر، كان ولايزال للخليج العربي أهميته الكبيرة في جوانب متعددة، ولكني سأقتصر في هذا البحث على الجانب التجاري والعلاقات التجارية مع العالم الخارجي وخاصة بلدان الشرق الأقصى،



الخليج وبلدان الشرق الأقصى

الحضارية في العصور الوسطى

مبيناً ما ترتب على هذه العلاقات من تأثيرات مباشرة أو غير مباشرة في النواحي الحضارية من حيث التعرض للتغييرات التي حدثت في بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والصناعية، وما ترتب عليها في الجوانب العلمية والدينية بين شعوب البلدان التي تمت بينها هذه العلاقات التجارية، مما جعل منطقة الخليج العربي محط أنظار الدول القوية في فترات التاريخ المتعاقبة.

بقلم : الدكتور
أحمد الشامي



الوثيقة - ١٠١

فالموقع الجغرافي : لعب دوراً كبيراً في أهمية منطقة الخليج منذ عصوره التاريخية القديمة، ولكن هذه الأهمية وضحت وبلغت مكانة مرموقة في فترة العصور الوسطى . فالخليج إلى جانب كونه حلقة اتصال مباشرة بين الشرق الأقصى (الهند والصين وجزر الهند الشرقية) وبين دول العالم الإسلامي حينذاك ونعني بها العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر، كان كذلك حلقة اتصال غير مباشر بين الشرق الأقصى وشرقي أفريقية، وجزر البحر المتوسط وبعض مدن جنوب أوروبا . أي أن الخليج العربي كان بمثابة الممر التجاري الذي يربط الشرق بالغرب قبل أن تعرف الطائرات والقطارات .

وكانت سفن التجارة القادمة من الشرق الأقصى ترسو في موانئ مدن الخليج مثل عمان، وهرمز، وسيراف، وقطر، والبحرين، وتفرغ حمولتها من التجارات، وكانت هذه المدن تقوم بتوزيع مايرد إليها على المدن الداخلية أو تحتفظ بجزء منه لتقوم سفن الخليج بتصديره مرة أخرى إما إلى حاضرة العالم الإسلامي (بغداد) أو إلى شرقي القارة الأفريقية (بلاد الزنج) وعلى هذا يمكن القول بأن مدن الخليج كانت مراكز رئيسية لتلقي الواردات التجارية من دول الشرق الأقصى، وهي في نفس الوقت مراكز لتخزين وتصدير هذه التجارات (البضائع) إلى بلدان العالم المختلفة . ولكي تتضح لنا أهمية الخليج التجارية لابد لنا من إلقاء نظرة سريعة مركزة على الموقع الجغرافي لهذه المدن، حتى نقف على نشاط السكان في كل مدينة منها .

فإذا ما تناولنا عمان نجد أنها قاعدة الخليج، تقع على مداخله من الجهة الجنوبية على الشاطئ الغربي، وفي نفس الوقت تطل على المحيط الهندي، أي أنها تقع على الطريق الرئيسي للتجارة الرائجة الممتد من الصين إلى المدن الواقعة على جانبي الخليج . وعمان مدينة جليلة بها مرسى السفن من الصين والهند والزنج، وليس على بحر الخليج مدينة أجلّ منها، وهي ديار الأزد[1] .

وهي أحد المراكز الرئيسية للتجارة على الساحل الغربي للخليج، كانت تستقبل السفن الآتية من البصرة متجهة إلى الهند والصين وشرقي أفريقية أو بالعكس قصبتها صحار وهي أعمر مدينة وأكثرها مالاً بعمان[٢]، وزاد المقدسي[٣] على هذا القول بأنها دهليز الصين، وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن، ويصف ابن بطوطة[٤] مزروعاتها وحياة السكان بها فيذكر لنا شجر الكندر وورقه الرقيق الذي يشَق فيقطر منه سائل صفي أبيض هو اللبان، وأنه رآه بكثرة في مرسى حاسك وبيوتهم مبنية من عظام السمك وسقوفها من جلود الجمال، بها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية، وعادة أهلها أنهم يأكلون في صحن المسجد، فيأتي كل إنسان بما عنده، ويأكل معهم الوارد والصادر[٥]، وهم إباضية المذهب[٦]، ومسقط قرية من أعمال عمان تبعد عنها خمسين فرسخاً، ومنها يستقي أرباب المراكب الماء من آبار عذبة بها[٧] .

هرمز :

مدينة على الساحل إلى الأمام من رأس جسر يمتد إلى الشرق في مياه الخليج في مواجهة بندر عباس، ولذلك فهي تتحكم في المدخل الجنوبي للخليج العربي وتعتبر ذات استراتيجية هامة، وتسمى كذلك موغ أستان، ويقابلها في البحر جزيرة هرمز (الجديدة) ومدينتها تسمى (جرون)، زارها المقدسي في أواسط القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ووصفها وصفاً جيداً[٨]، معظم تجارها عرب وبعضهم من الفرس، وكلهم مسلمون يتكلمون العربية ولكن الفرس يتكلمون لغتهم إلى جانب العربية، . . . وكثير من تجارها أغنياء جداً، يملكون سفناً عديدة، ومن جملتهم رجل يعرف باسم حسن بن العباس له مراكب تسافر إلى أقصى بلاد الهند والصين . في مينائها أسواق حافلة لتبادل السلع والتجارات منها تحمل سلع الهند إلى العراقين وفارس وخراسان، وهذه المدينة سكنى السلطان[٩] .

كانت هرمز مدينة صناعية إلى جانب كونها مدينة تجارة، فقد ساعدتها البيئة الجغرافية في ذلك لأن تكوينات معظم أراضيها من الملح الدارني (سباخ)[١٠] فكان أهل هرمز يصنعون منه الأواني المزينة، والمنارات التي يضعون السرج عليها، وطعام أهل المدينة السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان، وكانوا يقولون عنه (خرما وماهي لوت بادشاهي) أي أن التمر والسمك طعام الملوك، ويستدل من هذه العبارة أن حياتهم الاجتماعية كانت مستقرة .

سيراف :

تقع على الساحل الشرقي للخليج، كانت بمثابة المركز الدولي للتجارة البحرية وخاصة في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة (٧ – ٩م) فكان التجار العرب من البصرة يصلون إليها بتجارتهم ثم يبحرون إلى بلاد الهند والصين، وفي كثير من الأحيان كانوا يبحرون إلى عمان أولاً ثم يواصلون إبحارهم إلى الهند والصين . والبلخي[١١] يذكر لنا ما كانت عليه سيراف من الأهمية الاقتصادية فيقول : "كانت سيراف قبل ذلك مدينة كبيرة مزدحمة بالمتاجر، تجارتها الأخشاب، والطيب والكافور والحرير، ولكنها فقدت أهميتها التجارية عندما وقعت تحت سيطرة أهل جزيرة قيس . ومن يتوجه إليها الآن يقصد الإفادة من مينائها أو ربما لإصلاح السفن، ويتغنى المقدسي بجمال هذه المدينة، ويذكر بيوتها أنها مبنية من خشب الساج والآجر وأخشاب أخرى تحمل من الشاطئ الأفريقي الشرقي، وهي طبقات على حافة البحر[١٢] كانت سفن الصين تأتي إليها محملة بالتجارات تبادلها بتجارة العرب أو يبيعونها – ويبتاعون بدلاً منها ما يروق لهم من سلع وبضائع[١٣] .

وكانت سيراف ترسل بهذه السلع والتجارات إلى المدن الداخلية في إيران مثل شيراز وغيرها، ويطلق التجار على سيراف اسم (شيلاو) .

وقد اشتهر أهل سيراف بحبهم للعمل في البحر لدرجة يصفها الأصطخري(٥) بأن الرجل ربما يقضي جل عمره في البحر لايخرج من سفينته إلا لضرورة قصوى، ويقص علينا بعض القصص عن هذا النوع من أهل سيراف، وأن أحدهم مكث في سفينته أربعين سنة على الرغم مما كان عنده من أموال طائلة، وكان أشهر أصحاب السفن في ذلك العهد هم محمد بن شاذان من أهل سيراف، وكان أكبر أهل صنعته ولهذا طلب ملك الهند أن ترسم له صورة لأن عادة ملوك الهند أن يقتنوا صوراً لأشهر الرجال في كل حرفة(٥٥) .

جزيرة قيس :

بعد أن فقدت سيراف جزءا كبيراً من أهميتها التجارية في القرن الرابع الهجري (١٠م) انتقل مركز الثقل التجاري على الساحل الشرقي للخليج إلى جزيرة قيس، فكان التجار يقصدونها للبيع والشراء، ومقايضة ضروب السلع كالحرير والكتان والقطن والقنب والحنطة والشعير والدخان والأرز وسائر أنواع الحبوب والبقول . وأغلب سكان الجزيرة دلالون ووسطاء بين هذا الحشد الغفير من التجار، وهي مرفأ مراكب الهند التي كانت تأتي بالتوابل والعطور، فيها مغاص على اللؤلؤ(١٤)، وفي أجزاء كثيرة حولها، يذكرها معظم الجغرافيين العرب في سياق حديثهم عن جزيرة هرمز .

قطر :

شبه جزيرة كبيرة يحيط بها قليل من الجزر الصغيرة، ولهذا يطلق المسعودي(١٥) عليها جزر قطر، وتقع على الجانب الغربي للخليج، حاضرتها

الدوحة ويسميها البدو أحياناً (دوحة قطر)، وقد سميت قطر نسبة إلى ما تصنعه من برود حمراء من الصوف (رداء)[١٦] ويقول أبو عبيد في هذا الصدد :

كساك الحنظلي كساء صوف   وقطريـــاً فأنت به تفيـد

ويبدو أنها كانت مشهورة قديماً باسم البدع وهو اسم الحي الذي نزلت به قبيلة السودان (السويدي) التي جاءت مهاجرة من أبوظبي، وما زال هذا الحي موجوداً آهلاً بالسكان[١٧]، تذكرها المراجع العربية القديمة ولكنها لم تسهب في الحديث عنها . وسطح شبه الجزيرة عبارة عن صخور غير وعرة، وأجزاؤها الوسطى والجنوبية أكثر ارتفاعاً من مستوى سطح جزيرة البحرين[١٨]، بها عيون ماء كثيرة .

الأعمال التجارية كانت تنحصر في صيد اللؤلؤ وتربية البعير والاتجار فيه ومعيشة السكان تقوم على صيد الأسماك ولكنهم كانوا كذلك تجاراً نشطين وملاحين حاذقين يعملون في نقل التجارات الداخلية من وإلى البحرين وسيراف والبصرة وعمان، وكانت مراكبهم تقدر بالمئات تجوب مياه الخليج وتمخر عباب المحيط، بالإضافة إلى مراكب صيد اللؤلؤ ومراكب صيد الأسماك . ولم يكن لأهل قطر خبرة بصناعة السفن ولهذا تركوا أهل البحرين وبعض الإيرانيين يقومون بتصنيع هذه المراكب لهم، وقد اتخذ أرباب هذه السفن من قطر مركزاً لشن المغامرات البحرية ضد سفن التجارة الواردة من الهند أو القادمة من البصرة[١٩] .

كانت معظم تجارة قطر الخارجية ترتبط بالبحرين، ويبدو أن هذا الارتباط جعل الجغرافيين والرحالة العرب في العصور الوسطى يتكلمون عن قطر خلال كتاباتهم عن البحرين، فصاحب المعجم ينقل عن أبي منصور الأزهري خلال حديثه عن قطر قوله[٢٠] :

"في أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير قرية يقال لها قطر وأحسب الثياب القطرية تنسب إليها" ويبدو أن بعضاً من المشايخ المقيمين في البحرين في العصر الوسيط كانوا يجمعون الزكاة من أهل قطر، واستندوا إلى أن أداء الزكاة نوع من التبعية لهم، وظلوا متمسكين بوجهة نظرهم هذه حتى السبعينات من القرن الماضي (سنة ١٨٧٥) عندما تدخلت بريطانيا ونصحت شيخ البحرين بضرورة فصل مصالحه عن مصالح سكان البر القطري، وكان لايزال يعطي نفسه حق السيادة عليها[٢١] .

ولكن عندما استقرت الأوضاع في قطر، وتحددت العلاقة السياسية بينها وبين البحرين واتضحت الرؤيا بأن قطر يقوم على حكمها وتصريف شئونها وبذل الجهد في مصالحها ومصالح أهلها شيوخ من قبيلة المعاضيد، ونعني بهم أسرة آل ثان الذين احتلوا مكان الصدارة بين شيوخ القبائل الأخرى، أدى هذا بطبيعة الحال إلى التطور والنمو السريع في جميع نواحي الحياة التجارية والصناعية والثقافية والسياسية في البلاد كما نعيشه في وقتنا الحالي .

البحرين :

جزيرة كبيرة تقع قرب الساحل الغربي للخليج، إلى الشرق من مدينة هجر التي تعرف بالحسا (الأحساء)، وتحيط بالجزيرة الأم عدة جزر صغيرة يبلغ عددها ٣٢ جزيرة، من أهمها أم النعسان، والمحرق وسترة، والمنامة حاضرة البحرين، كثير من العيون العذبة تندفع من مياه البحر، يزرع بها نخيل البلح، والرمان والأترج وقصب السكر، وكانت هجر تسمى البحرين كذلك، مستقر القرامطة من آل أبي سعيد الجنابي[٢٢]، ومعظم سكان البحرين وهجر عرب من قبيلة عبد القيس بن أفصى[٢٣]، ويصف لنا ابن بطوطة[٢٤] كيف شاهد الغواصين ينزلون إلى قاع البحر في المنطقة الواقعة بين البحرين وسيراف

في خور راكد في شهري أبريل ومايو حيث يأتي إلى هذه المنطقة الكثير من القوارب وفيها الغواصون وتجار من فارس والبحرين والقطيف، وبعد أن يحصل السلطان على خمس كمية اللؤلؤ المستخرج، وهو نصيبه الخاص[٥]، يقوم التجار بشراء الكمية الباقية منه لكي يصدروه بدورهم إلى الهند والصين، والقليل منه إلى الدولة الروسية وبلاد الشام ومصر .

عرفت البحرين ركوب البحر كما عرفته عمان منذ عصر ما قبل الإسلام، وكان للبحرين وهجر سفنها، وتجارتها الداخلية مع مدن الخليج، والخارجية مع بلدان الشرق الأقصى أو شرق أفريقيا أو اليمن (عدن) وعقب ظهور الإسلام أخذ العرب يشنون منها الغارات على المدن الفارسية[٢٥] وكانت أولى هذه الغارات بقيادة عثمان بن أبي العاص الثقفي والي البحرين (سنة٢٢هـ/٦٤٣م) الذي قاد المجاهدين من البحرين في غارات جريئة على ساحل بلاد الفرس واستولى على شيراز وجنابه واصطخر وغيرها[٢٦] .

وأهل البحرين خبراء ممتازون في صناعة السفن، ذاع صيتهم في البحار لمهارتهم الملاحية وشجاعتهم أمام العواصف والأنواء . وكانت أشرعة السفن المصنعة في البحرين لا تقل شهرة عن صيتهم في صيد اللؤلؤ والمرجان وتجارتهما .

البصرة :

تقع على ساحل نهر دجلةقريباً من ملتقى النهرين، بينها وبين الأبلة عشرة أميال إحدى أمهات العراق الشهيرة الذكر، ليس في الدنيا أكثر نخلاً وتمراً منها، يصنع العراقيون منه عسلاً يسمى (السيلان) وهو طيب[٢٧]، يروي الأصمعي أنه سمع الرشيد يقول "نظرنا فإذا كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة[٢٨] .

كانت تأتي إليها تجارات الهند والصين وفارس وعمان واليمامة والبحرين لتصبها بدورها في عاصمة الدولة الإسلامية ببغداد عن طريق نقلها بالسفن النهرية، فيروى أن الخليفة المنصور قال : "هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر[٢٩]".

وبالتالي كانت بغداد ترسل بتجارات بيزنطة والشام ومصر وما يرد إليها من تجارات حوض البحر المتوسط إلى بلدان الشرق الأقصى، وهذا يعطي دلالة قوية على أهمية موقع الخليج وبالتالي أهمية البلدان الواقعة على جوانبه في العلاقات التجارية بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى بما في ذلك حوض البحر المتوسط وقد قيل : لو سُدّ الخليج العربي لم تكن هناك مطلقاً أية أهمية تجارية للقسم الشرقي من حوض البحر المتوسط في التجارة العالمية[٣٠].

الأبلة :

كورة بالبصرة، لاتقع الشمس على كثير من أراضيها ولا تبدو قراها من خلال أشجارها الجانب الغربي منها مأهول بالسكان[٣١]، ذكرت في المراجع العربية القديمة أنها كانت زمن الفتح العربي الإسلامي مرفأً للسفن من الهند والصين وعمان والبحرين [٣٢] وكانت مقصد تجار فارس والهند لعظم سوقها، ولكنها خربت، وهي الآن (القرن ١٤م) قرية بها آثار قصور ومبانٍ تدل على عظمتها[٣٣].

عبادان:

جنوب البصرة على الجانب الشرقي لشط العرب، يركب منها للإبحار في اتجاهين : اتجاه إلى ناحية البحرين نحو بحر العرب، واتجاه إلى ناحية

سيراف وجنابه وفارس تسمى ميان روزان (وسط النهرين)[٣٤]، كانت حصناً صغيراً عامراً على شط البحر فيه متاريس للقطرية وغيرهم من متلصصة البحر، كان الناس يقصدونها للإقامة بها متعبدين[٣٥] وكان بها على الدوام مرابطون[٣٦] وأكثر أهلها يصنعون الحصر من الحلفاء غير أن الماء بها ضيق والبحر عليها مطبق[٣٧]، وكانت رسوم المراكب تجبى عندها[٣٨] .

دور الإنسان العربي

ارتبط سكان منطقة الخليج منذ القدم بالتجارة، وقد اضطرتهم البيئة الطبيعية التي أحاطت بهم إلى الاتجاه نحو البحر بحثاً عن وسيلة يستكملون بها معاشهم، ويحفظون بها حياتهم، ولم يجدوا أمامهم سوى ركوب البحر فأصبحوا تجاراً نشيطين، وصيادين حاذقين، ومغامرين شجعان، وغطاسين مهرة ينتزعون اللؤلؤ والجواهر من قاع البحر ويقايضون به على مايحتاجون إليه من المواد الضرورية والكمالية اللازمة لحياة الإنسان .

حقيقة أن البعض من هؤلاء السكان احترف رعي الإبل والماشية والزراعة ولكن قلوبهم كانت تهفو دائماً إلى البحر، وأبصارهم عالقة بشواطئه، وعقولهم تعمل على أن يركبو صفحة مياهه، فكان لابد لهم من مراكب يصنعونها بأيديهم وقد تمكنوا من ذلك وتكونت لديهم أهم صناعة عرفها عالم العصر الوسيط ألا وهي صناعة السفن بأنواعها المختلفة، وأسمائها المتعددة وأغراضها الكثيرة وأصبحت المدن الواقعة على جانبي الخليج مراكز أساسية في تخريج بحارة مهرة وملاحين أكفاء لهذه السفن التي كانت تعبر البحار وتمخر عباب المحيطات . وقد عشق هؤلاء البحارة ركوب البحر ومواجهة الأخطار وتحدي الأمواج والرياح والأنواء والعواصف ونجحوا في ذلك إلى أقصى درجات النجاح . وقد نبغ بعض الملاحين العرب من أمثال محمد بن شاذان، وسهيل بن أبان

وهما عالمان كبيران بفنون البحار وما يلزمها من علم الفلك، ثم تبعهما جيل يتمثل في أحمد بن ماجد الذي درس ما خلفه هذان العالمان إلى جانب ما وجده من أصول ثابتة لهذا العلم وقواعده في أوراق البردي الإيرانية القديمة (راه نامك) التي تناولتها أجيال بعد أجيال بالدراسة والتمحيص والإضافة حتى تكونت مدرسة لتخريج ملاحين مهرة خبراء في علم البحار وعلومها[٣٩] .

لم يكن من السهل مطلقاً على الشعب العربي الذي يعيش في مدن الخليج وسواحله أن يستوعب صناعة السفن التي نقل أصولها عن الهند، والتي ربما تأثرت بعد ذلك ببعض الجوانب المصرية في طريقة تثبيت صواريها وأشرعتها كما يقول البعض ذلك[٤٠]، وذلك لما كان لهذا الإنسان من دور فعال، وكذلك القابلية في تقبل علومٍ وصناعات جديدة لم تعرفها البيئة التي عاش فيها من قبل، فهو ليس ناقلاً لهذا الجديد فحسب، بل هو مطور ومعدل له إلى الأحسن بحيث يتناسب هذا الجديد وحياته العربية وظروفه البيئية، وسوف تتضح هذه الصورة عندما نتحدث عن تأثر الحضارة العربية بالتجارة .

كل ما أريد أن أثبته هنا هو أن الإنسان العربي كانت ولا تزال لديه القدرة على تلقي العلوم المختلفة وأسباب الحضارات المتنوعة من معينها إذا ما أعطيت له الإمكانيات الكافية وأتيحت له الظروف المناسبة، ليس هذا فحسب بل هو كذلك ذلك الإنسان المبدع والمجدد فيما يتلقاه حيث بصماته وتأثيراته على كل ما يصل إليه من علوم وحضارة السابقين حتى يستخرج علوماً وحضارة جديدة .

هذا الإنسان العربي الذي نقل جوانب متعددة من وإلى الحضارة العربية الإسلامية والتي أثر فيها وطورها، هو نفسه ذلك الإنسان الذي أثبت البحث التاريخي أنه صانع الحضارة المعينية في اليمن بعدما انتقل إليها من جزر البحرين[٤١] . وكان للتقارب اللغوي بين العرب عامة وعرب الخليج خاصة

وبين سكان العراق القديم دور قوي في وجود صلات تجارية وسياسية وتأثيرات ثقافية وحضارية ظلت قائمة بين شعوب هذه المنطقةقروناً عدة .

ويكفي للدلالة على الدور الكبير الذي لعبه الإنسان العربي في هذا المضمار أن نذكر بعض أسماء لرحالة عرب ومسلمين اتخذوا التجارة حرفة لهم ليتمكنوا من السفر والترحال، أو تجار استهوتهم الرحلات والأسفار فدونوا مشاهداتهم ووصفوا البحار والمحيطات والمدن والبلدان وأنواع التجارات، وأسماء السفن وأشكالها واستعمالاتها . وتعتبر كتاباتهم بحق الأساس الذي قامت عليه علوم الاقتصاد والاجتماع والتاريخ والجغرافيا والسياسة وهي علوم لا غنى عنها للمشتغلين بالتراث العربي الإسلامي . من هؤلاء نذكر ياقوت الحموي الذي أرسله سيده في تجارة إلى جزيرة قشم في الخليج العربي وإلى عمان وديار الشام فأغرم بالرحلات ومعرفة البلدان فأخذ يتاجر في سبيل أن يرحل ويرحل حتى وضع معجمه الذي يعتبر بحق معجماً جامعاً في تاريخ وجغرافية المدن والبلدان، ثم المروزي شرف الزمان طاهر الذي عني بالنواحي الاقتصادية في رحلاته وأسفاره في منطقة الخليج والهند، وكذلك المقدسي المعروف بالبشاري، واليعقوبي الذي يعتبر بحق أول جغرافي بين العرب يعتمد على ملاحظاته ومشاهداته الخاصة في وصف الممالك، وأبو الفداء الذي ذكر أسماء ٦٠ عالماً جغرافياً مشهوراً ممن سبقوه وظهروا قبله، والمسعودي الذي ترك بصمات واضحة في هذه العلوم ثم شيخ الرحالة ابن بطوطة الذي جاب الآفاق وظل أكثر من ربع قرن في ترحاله وترك لنا معلومات قيمة ونادرة عن أماكن ما كان للعرب أن يعرفوها بدون أن يكون للعلاقات التجارية أثرها الكبير في دفع هؤلاء العلماء إلى أن يكونوا رحالة .

الملاحة البحرية وصناعة السفن

لاشك أن منطقة الخليج عرفت بناء السفن والخروج إلى ظهر البحار والمحيطات منذ عصور ما قبل الإسلام عندما نقلوا هذه الصناعة عن التجار والصناع الهنود، ذلك لأن سفن الهند التجارية كانت تصل إلى بحر الخليج وتصعد في نهر دجلة حتى المدائن (كتسيفون Ctesiphon)[٤٢]، ويذكر البلاذري[٤٣] أن الأبلة كانت زمن الفتح العربي فرضة البحرين وعمان والهند والصين، ويقرر الطبري[٤٤] هذه الحقيقة بقوله : "إن الأبلة كانت تسمى قبل الإسلام (فرج الهند) وكانت العلاقة البحرية والتجارية بين الأبلة والهند وثيقة إلى حد كبير، ولكن لم يمنع هذا من وجود مغامرين (قراصنة) من الهند في البحر (مياه الخليج)، أخذ حاكم الأبلة الفارسي في محاربتهم وربما كان لهؤلاء القراصنة مناطق يحتمون بها على الساحل .

ولكن هناك من المؤرخين الأوروبيين من ينكرون على العرب معرفتهم ركوب البحر واتخاذ التجارة حرفة لهم في عصر ما قبل الإسلام[٤٥]، ويكفينا رداً على هذه الآراء الإشارة إلى ما كتبه المؤرخ اللاتيني أميانوس مارسيللينوس (Ammianus Marcellinus)[٤٦] عن الملاحة في الخليج في عصر دولة الفرس الساسانية حيث يقول : "كان الخليج يعج بالملاحة، والسفن البحرية تختتم رحلاتها في (تيريدون) عند مصب نهر الفرات، ثم يصف المدن العربية المجاورة لفارس والمطلة على سواحل الخليج بأن لها موانئ محمية، ومراسي للسفن، وأن العرب قادرون على استغلال ثروات البروالبحر معاً . ويرى بيل Bell[٤٧] في دراسته لأوراق بردي أفروديت على عهد قرة بن شريك أن صناعة السفن في الشام والعراق وكل بلاد العرب قد تأثرت إلى حد كبير بصناعة السفن

في مصر، وأن صناعاً من المصريين شاركوا في العمل بهذه البلدان العربية، وأن مصر هي الأصل الذي نقل عنه العرب في سائر الجهات التي شيدوا بها دوراً لصناعة السفن، كما أن الشعر العربي لم يخلُ من أدلة تقرر معرفة العرب قبل الإسلام لركوب البحر، ومن أمثلة ذلك ما ذكره طَرفة بن العبد [٤٨] في قوله :

كأن حدوج المالكيــة غــدوة | خلايا سفين بالنواصف من دوي
عدولية أو من سفين ابن يامن | يحور بهــا الملاح طوراً ويهتـدي
يشق حباب الماء حيزومها بها | كما قسم الترب المفايـل باليــد

ولماذا نذهب بعيداً، وهاهم العرب الذين أسلموا يضطرون للهجرة إلى الحبشة وقد ركب هؤلاء البحر في سفن – بدون شك – عربية انطلقت بهم إلى مستوطنهم الجديد، وإلا بماذا نفسر ركوب هؤلاء العرب هذه المراكب، ومن أين جاءتهم ! ! ؟

إن ما يستطيع المؤرخ قوله بهذا الخصوص هو أن السفن العربية سواء في الخليج أو في البحر الأحمر قد قصرت إبحارها على المياه الداخلية دون الخروج إلى عرض البحر والمحيط بسبب ما أصاب بلاد العرب عامة، والأجزاء الجنوبية خاصة، من اضمحلال اقتصادي شديد في القرن السادس الميلادي قبل ظهور الإسلام لدرجة تمكنت فيها الحبشة من بسط سيطرتها على اليمن (حمير) وظلت كذلك إلى مجيء الإسلام .

ولكن ما لبث الوضع أن تغير إلى أحسن مما كانت عليه السفن العربية أيام قوتها قبل انتكاستها، بعد اتساع رقعة العالم الإسلامي وانتشار الدين الجديد وبناء أسطول عربي إسلامي قوي بعث في نفوس العرب والمسلمين القوة والأمل من جديد، فأخذت طلائع العرب بسفنهم تظهر في الهند منذ سنة ٦٣٧م على عهد الخليفة عثمان بن عفان، ثم خرجت سفن عربية أخرى من

عمان والبحرين وتقدمت نحو مصب نهر مران، وخضع ملك كابل وأدى الجزية للعرب سنة ٦٦٤م، وفتح العرب السند سنة ٧١١م[٤٩] . حتى إذا كان عهد دولة بني العباس في بغداد أصبحت سفن المسلمين من كل نوع تبلغ الآلاف وتجوب البحار والمحيطات .

كانت السفن تبنى بألواح من خشب التك (الساج) وكانت هذه الألواح تثقب ثقوباً ضيقة وبحذر شديد، ثم تشد بعضها إلى بعض على جانبي الهيكل (العيدان)[٥٠] بواسطة حبال مجدولة من شعر جوز الهند (النارجيل)[٥١]، وكانت هذه الأخرام تدسر بكوابيل من الخشب الدقيق عوضاً عن المسامير التي لم يستعملها أهل الخليج في بناء سفنهم خشية أن تنجذب إلى جبال المغنطيس الموجودة في بحر الصين أو بحجة أن المسامير تصدأ وتسبب للخشب تلفاً، ولكننا نرى أن عدم استعمال المسامير في صناعة السفن كان لارتفاع أثمانها ارتفاعاً كبيراً بسبب ندرة استعمال الحديد في صناعة السفن، وربما لأنها كانت تسبب انفلاق ألواح الخشب الجانبية للسفن، لأن العالم لم يكن قد عرف بعد المسمار اللولبي **Schranbennagel**[٥٢] وقد ظلت طريقة صناعة السفن على هذا المنوال حتى ما بعد القرن السادس عشر الميلادي، ففي أواخر هذا القرن حضر رالف فتش مع ثلاثة آخرين من الإنجليز وزاروا منطقة الخليج، وقد وصف فتش رحيله من هرمز إلى الهند، والسفينة التي ركب فيها بقوله : "ومنها ذهبت في سفينة مصنوعة من الخشب المربوط بعضه إلى البعض بحبال مصنوعة من قشر جوز الهند أو القنب، ولهذا كان الماء يدخلها كثيراً"[٥٣] .

ولم يكن استعمال المركب مقصوراً على نقل التجارات فحسب، سواء كانت داخل مياه الخليج أو خارجه، بل استعملت لنقل الرحالة والتجار والمسافرين كذلك ومنها ما كان يجمع بين كونه مراكب حرب ومراكب نقل، ومنها ما كان مقصوراً على نقل البضائع من موانئ الخليج إلى المدن الواقعة في

الداخل على الأنهار(٥٤)، ومنها ما كان خاصاً لنقل الركاب من مكان لآخر، أي بمثابة الأوتوبيسات النهرية في وقتنا الحالي .

ومن أهم أنواع هذه المراكب :

١ – **البغلة** : كانت من أكبر أنواع المراكب المعروفة في ذاك الوقت وحمولتها ٢٠٠٠ كيس تمر .

٢ – **البوم** : كانت تستعمل لنقل التجارات وحمولتها ١٢٠٠ كيس تمر .

٣ – **شوعي** : وهي مثل البوم في الحمولة والاستعمال .

٤ – **البلم** : كانت تستعمل لحمل الأخشاب والخضراوات من شط العرب إلى مدن الخليج .

٥ – **الجاكر** : نوع من السفن الكبيرة لنقل التجارات بين الصين ومدن الخليج .

٦ – **الأجفان** : هذا النوع مخصص لحماية دار السلطان في هرمز – لنشات حراسة – .

٧ – **الترانكي** : كان شائع الاستعمال في الخليج وخاصة في القرنين ١٧ و١٨ الميلاديين وكانت تسير بالمجداف والشراع معاً، وتستخدم في الحرب وفي نقل التجارات .

٨ – **غلافه** : استعملها عرب الخليج في حروبهم ضد البرتغاليين وجمعها (غلافات) .

٩ – **تكنه** : سفن صغيرة مسلحة قعرها مسطح ومطلي بالقار .

١٠ – **جنك** : ومصدرها الصين، وهذا دليل آخر على وصول سفن الهند والصين إلى الخليج .

١١ – هناك أنواع متعددة من المراكب الصغيرة مثل : الطيارات، والحديديات، الزبازب (مفردها زبزب) وكان هذا النوع مخصصاً لركوبة السلطان في بغداد، السميريات، القفاف، الجلبه، الوينج، الزورق، الصنبوق، الجلبوت، الجهازي، ماشوة، بقارة وغنجة وغيرها (٥٥) .

وقد أشار القرآن الكريم في كثير من آياته إلى السفن التي عرفها الإنسان منذ عهد نوح عليه السلام مثل قوله تعالى : "واصنع الفُلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغرَقون" (٥٦) .

وقوله تعالى : "وحملناه على ذات ألواح ودُسُر ۝ تجري بأعيننا جزاء لمن كان كُفِر" (٥٧) .

وقوله تعالى : "وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجون منه حلية تلبسونها ۝ وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (٥٨) .

وكان لهذه السفن عدة مسارات خارج مياه الخليج، أما داخل الخليج فلم يكن هناك سوى مسارين، أولهما أن السفن كلها سواء الآتية من البصرة أو من أحد الموانئ الواقعة على أحد جانبيه كانت ترسو في عمان (مسقط أو صحار) حيث تتزود بالماء والطعام، وتحمل ما تريد من بضائع ومنها تتجه إلى مالابار حيث ترسو في كولام، وثانيها أن السفن التي تريد الإبحار في موازاة الساحل الشرقي كانت تبحر من أي مكان داخل الخليج وتلتزم بالسير قريباً من السواحل الشرقية ثم السواحل الجنوبية لإيران إلى أن تصل إلى شواطئ السند،

وبلد السند هي المنصورة وأراضي الزط وما والاها من البلدان ثم تنتهي هذه السفن على سواحل الهند أو تتابع السير إلى الصين[٥٩] .

أما مسار السفن نحو شرق أفريقيا فكان يبدأ من أي من المراكز البحرية المتعددة سواء من البصرة أو من سيراف أو من عمان إلى مدغشقر، وكانت اليمن (عدن) المركز التجاري الرئيسي، أو بمعنى أصح مستودع التجارة الواردة من الصين والهند وبغداد وكانت السفن تنقلها من عدن إلى شرق أفريقيا أو إلى مصر التي كانت ترسل بسفنها عبر البحر الأحمر لتصل إلى عدن وتشتري ما تحتاج إليه من سلع مختلفة أو من بخور وعطور[٦٠] .

ويحدثنا المسعودي[٦١] أنه ركب البحر في سنة ٣٠٤هـ (٩١٦م) من زنجبار (قنبلو) على الساحل الشرقي لأفريقيا مسافراً إلى عمان في مركب من سيراف يملكه أحمد بن جعفر السيرافي، وأن أقصى ما تصل إليه مراكب المسلمين في أسافل (جنوب) بحر الزنج، إقليم موزمبيق (سفاله)، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين حيث يشترون العاج ويحملونه إلى الصين، وكان الصينيون يدفعون له أثماناً أكثر من التي تدفع في مثيله من بلاد أتام اوتنج — كنج[٦٢] . ويؤكد المسعودي أنه لولا تصدير العاج إلى عمان والهند والصين لأصبح كثيراً في بلاد الإسلام، وكانت معظم واردات الهند والصين من الجلود تأتي إليهم من شرق أفريقيا[٦٣] .

وإلى جانب هذه المسارات البحرية كان هناك مسار بري يبدأ من بغداد التي كانت مشحونة بكل أنواع التجارات المختلفة من بلدان الشرق الأقصى، فكان التجار يحملون بضائعهم على ظهور الدواب وينقلونها إلى سوريا ومنها إلى موانئ شرقي البحر المتوسط حيث تصدر إلى الدولة الرومانية أو إلى مدن جنوب أوروبا . وأهم ما كان يرسل إلى سوريا الحرير الخام وخيوطه ليعالج فيها بالصباغة والزركشة المطبوعة على المنسوجات قبل أن يعرض للبيع والاتجار،

أما بقية البضائع الأخرى فكانت تشمل الفراء والحديد والتوابل والأعشاب النباتية وقد شاعت هذه السلع في مدن حوض البحر المتوسط[٦٤] .

العلاقات التجارية وأهميتها في العصر العباسي

احتل الخليج العربي مكانة مرموقة في الحياة الاقتصادية لدولة بني العباس وأصبح جزءاً مهما من أجزاء العالم الإسلامي بالنسبة لبغداد لاسيما في العصر العباسي الأول الذي تميز بالنشاط والانتعاش التجاري بشكل ملحوظ ذلك لأن الحضارة العربية الإسلامية كانت في حاجة كبيرة إلى بعض الجوانب المادية[٦٥]، فالخليفة ورجال البلاط وكبار رجال الدولة والتجار كانوا في حاجة دائمة إلى المواد الترفيهية والكماليات الأجنبية الواردة من الهند والصين وأفريقيا[٦٦] .

وكان لابد لمدن الخليج أن تلعب دورها البارز في توسيع دائرة العلاقات التجارية بين بغداد وبين بلدان الشرق الأقصى لما لهم من قدم راسخة في مياه البحار خاصة وأن الخليج هو المنفذ البحري الطبيعي للدولة العباسية التي اتجهت نحو الشرق وبعدت عن مركز الثقل التجاري الذي كان موجوداً في البحر المتوسط على عهد الأمويين، وأصبح من الضروري أن ينتقل مركز الثقل التجاري إلى الخليج العربي لقربه من حاضرة العباسيين في بغداد ونشطت الحركة التجارية نشاطاً فائقاً بين مدن الخليج وبين الهند والصين على وجه الخصوص وأخذت السفن العربية الإسلامية تكثر وتزيد حتى أصبحت التجارة الإسلامية مظهراً من مظاهر أبهة العرب والمسلمين، وأصبح التاجر الغني الذي لديه إمكانيات واسعة في الاتجار وامتلاك السفن وتشغيل أمواله في الجوانب

التجارية المختلفة هو ممثل لجانب مهم من جوانب الحضارة الإسلامية ، ونعني به الجانب الاقتصادي أو المادي . وكانت النتيجة المباشرة لازدياد الحركة التجارية بين هذه البلدان أن استعادت مدن الخليج العربي مكانتها السابقة في عالم التجارة والاقتصاد، فكانت سفن الخليج التجارية تبحر من مياه الخليج وهي محملة بالبضائع التجارية المختلفة من بغداد والبصرة والبحرين وعمان متجهة إلى الهند والصين أو أفريقيا لتعود من هذه البلاد محملة بالبضائع التجارية فتغرق بها أسواق العالم الإسلامي .

وتتمثل أنواع التجارات في السلع الآتية، **فمن الصين** كان يرد على مدن الخليج اللبان والكافور والقرنفل والعود الهندي، والقمح وهو كثير جداً والأرز والسكر وكان يفضل السكر المصري والبقول مثل العدس والحمص وكثير من أنواع الفاكهة[٦٧] . وكثير من المنسوجات الحريرية وهو لباس الفقراء والمساكين في الصين ولولا التجار ما كانت له قيمة، أما المنسوجات القطنية فكانت غالية الثمن . ومما شملته السلع الواردة من الصين الفرند والكيمخا والمسك والسروج والصيلبنج والدارصيني والخولنجان وفراء السمور والسنجاب والقاقم، والجلود المختلفة والشمع .

أما المعادن فكانت تتضمن الذهب والنحاس وكانوا يستخرجونه من أماكن خارج تكدا، والأسلحة وسهام الحرب، وحراب صيد الأسماك، وخشب الأبنوس .

ومن الهند كانت ترد كذلك كثير من التجارات مثل الياقوت بألوانه المختلفة من سرنديب (سيلون) وكان يستخرج من شواطئ الجزيرة ويحفر عليه، والألماس والعود الهندي والتوابل والفلفل، والنارجيل، والخيزران، وزهرات يصنع منها العطور وكذلك البقم وهو نبات عروقه دواء يشفي من لدغة

الثعبان وقد جربه البحريون, والأرز، والبهـــار والأفاويه وأنواع الأدوية والعقاقير .

ومن جزر بحر هركند تحمل مراكب الخليج الكافور والنارجيل وخشب البقّم والفيلة بها كثيرة[٦٨] . وحول هذه الجزر يوجد أحسن أنواع العنبر وهو النوع المدور الأزرق النادر وهو كبيض النعام أو دونه[٦٩] . ومن الهند كذلك كانت السفن تأتي محملة بالصندل، والكافور والقرنفل، والقاقله والكبابه، والساج والخشب المعروف بالدارزنجي والقنا والعاج والطيب .

ومن المعادن الرصاص القلعي من كله, والحديد والنحاس من السردن وقد انحصرت تجارة جزر الهند الشرقية في العنبر والكافور[٧٠] وكان التجار العرب يبادلون به بعض السلع الأخرى من الصين .

وتمثلت صادرات مدن الخليج في اللؤلؤ والجواهر والأحجار الكريمة[٧١] والزيوت التي يحمل منها إلى الآفاق[٧٢] والخيول العربية من ظفار، والفضة، والآنك والكبريت، والنفط، وماء الورد، وكان أهل الصين لا يفضلون أي نوع من اللؤلؤ على ذلك المستخرج من الخليج[٧٣] .

هذه البضائع كلها كانت تأتي إلى مدن الخليج التي كانت جميعها بمثابة مخازن كبيرة لسلع الشرق الأقصى، ومراكز إمداد وتموين تجاري للمدن الداخلية في إيران والعراق والشام وشبه جزيرة العرب وغيرها من دول البحر المتوسط .

وكانت مدينة ظفار (باليمن) تتبع أسلوباً طريفاً في استقبال سفن التجارة الواردة إليها من بلدان الشرق الأقصى، فإذا ما وصلت إحدى السفن خرج عبيد السلطان إلى الساحل وصعدوا في صنبوق إلى المركب، ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله، وللربان وهو الرئيس، ولكاتب المركب(الكراني)

وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثة أيام وبعدها يأكلون بدار السلطان، وهم يفعلون ذلك استجلاباً لأصحاب المراكب .

هذه هي التجارات والسلع التي قامت عليها العلاقات التجارية بين دول الشرق الأقصى وبين مدن الخليج العربي والتي كانت تنقل منها إلى كل صقع في العالم الإسلامي، بل إلى كثير من بلدان جنوب أوروبا – كما ذكرت – عن طريق المسار البري الموصل إلى سوريا ثم إلى شرقي البحر المتوسط، ومازالت هذه العلاقات التجارية قائمة إلى يومنا هذا بين الجانبين، وهي وليدة تسودها روح التعاون الاقتصادي المثمر القائم على الثقة والتفاهم حيث نجد أن معظم واردات مدن الخليج مثل الأرز وهو الغذاء الرئيسي لأهالي مدن الخليج، والحبوب والبقول والفواكه إلى جانب كثير من المنسوجات الصوفية والحريرية والقطنية والمصنوعات الميكانيكية والآلية الحديثة . . تأتي من الصين والهند وجزر الهند الشرقية وإن كانت اليابان ومدن أوروبية كبيرة قد دخلت إلى هذا الميدان في العصر الحديث .

وكانت طريقة البيع والشراء لهذه السلع التجارية تتم عن طريق المقايضة في أول الأمر . ويروي لنا الرحالة العربي ابن بطوطة[٧٤] طرائف عن نظام المقايضة في الصين فكان التجار العرب يذهبون بتجاراتهم إلى أسواق مخصصة في حافة أرض الظلمة ويتركونها في هذه الأماكن ثم يأتون إليها في اليوم التالي حيث يجدون بجوارها فراء السمور والسنجاب والقاقم كمقابل عن هذه التجارات فإن رضي صاحب التجارة حمل الفراء وترك بضاعته وانصرف وإن لم توافقه الصفقة ترك كل شيء كما هو إلى اليوم التالي فإما يجد أن المشترين من أهل الصين قد زادوه في أنواع الفراء وإما أنهم حملوا فراءهم وتركوا له متاعه(بضاعته) فيأخذه وينصرف .

وقد استخدم أهل الصين وأهل فارس والعراق هذه الجلود الفرائية في ملابسهم بوضعها حول العنق لتقيهم شدة البرد .

ولكن عندما تطورت نظم الحياة في العالم عرفت الدول السكة المعدنية والفضية والذهبية واستعملتها في بيعها وشرائها وكانت الصين أول من استعمل العملة الورقية حيث اتخذت لها عملة من الكاغد الصيني في حجم كف اليد وكان كل ٢٥ كاغداً تساوي ديناراً[٧٥] .

ولم تكن التجارة معفاة من الرسوم الجمركية، فقد عرفت بلدان الشرق الأقصى وخاصة الصين نظام الضريبة في التجارة الواردة، وأغلب الترجيح أنها نقلته عن نظام العشور الذي كان سائداً في الدولة الإسلامية وقتذاك والذي ربما انتقل إلى الصين بعد أن تكونت فيها مراكز تجارة إسلامية كبيرة واستقرت بها جاليات عربية وإسلامية عظيمة، فالمراجع التاريخية وكتب الرحالة والجغرافيين[٧٦] الذين عايشوا هذه الحياة في هذه البلدان يروون لنا كيفية نظام تحصيل ضريبة التجارة الواردة بقولهم ". . . ومتى وصل مركب يصعد إليه صنبوق السلطان، فيسأل عن المركب من أين قدم ؟ ومن صاحبه ؟ ومن ربانه ؟ وما هي شحنته (وسقه) ؟ ومن قدم فيه من التجار وغيرهم فيعرف هذا كله ويعرضه على السلطان فمن كان يستحق ضيافة السلطان استضافه عنده وأكرم نزله" .

من دراسة هذه النصوص يمكن لنا القول بأن العرب عرفوا منذ بداية العصور الوسطى نظام التفتيش الجمركي والرقابة البحرية وتحصيل ضريبة على البضائع الواردة وهي المعروفة اليوم بالرسوم الجمركية لحماية التجارة الداخلية، وأن بلدان الشرق الأقصى نقلت هذا النظام ولكنها عدلته بما يتلاءم مع طبيعة الحياة فيها، وأن العلاقات لم تكن محصورة في نطاق الجوانب

التجارية بل تعدتها إلى الجوانب الإنسانية حيث كان السلاطين يستضيفون أصحاب المنزلة ممن يكونون على ظهر السفينة .

هذه الجوانب الإنسانية في العلاقات التجارية هي التي سمحت للتجار اليهود الموجودين بإقليم بروفانس بفرنسا(٧٧) أن يشاركو بتجارتهم مع دول العالم الإسلامي وبلدان الشرق الأقصى، على الرغم من سيطرة التجارة العربية الإسلامية وأساطيلها التجارية على بحار ومحيطات الشرقين الأقصى والأوسط، وأهم ما كان يجلبه هؤلاء التجار اليهود إلى الشرق الخدم والغلمان والجواري والديباج والخز الفائق، وفراء السمور، وكانوا يركبون البحر من جنوب فرنسا إلى الفرما (بورسعيد الحاليةً) ثم يحملون تجارتهم على ظهورهم إلى القلزم (السويس) ثم يركبون البحر الشرقي (الأحمر) حيث يواصلون إبحارهم إلى عدن أو إلى موانئ الهند في مراكب عربية، وهناك يبادلون ما معهم من تجارة ويشترون المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك ثم يعودون من نفس الطريق وفي بعض الأحيان كان هؤلاء التجار اليهود يسلكون الطريق الثاني المؤدي إلى الفرات حيث ينزلون في أنطاكية ثم يتجهون براً إلى الفرات حيث تنقلهم المراكب العربية الإسلامية من دجلة إلى الأبلة ومنها يبحرون في مراكب عربية أخرى أكبر من السابقة حيث يصلون إلى عمان أو الهند أو السند، وكان هؤلاء يتكلمون العربية والفارسية والتركية إلى جانب لغتهم الفرنجية .

ومن المرجح جداً عندي أن هؤلاء التجار من اليهود كانوا يبيعون تجارتهم ويشترون بدلاً منها ما يريدونه من تجارات موجودة في مراكز التجارة العربية الإسلامية التي كانت بمثابة مستودعات أو مخازن كبيرة لبضائع وسلع الهند والصين وغيرها من بلدان الشرق الأقصى والموجودة في الأبلة وهرمز والبحرين

وعمان وعدن حتى لا يتحملوا كثرة التكاليف ومشقة السفر في تنقلاتهم وسفرهم بالبحر في سفن عربية إسلامية لاسيما وأن سفنهم كانت تأتي بهم فقط إما إلى الفرما أو إلى أنطاكية .

كان من الطبيعي تحت ظروف المنافسة التجارية الشريفة ألا يستمر هؤلاء التجار اليهود في مزاولة تجارتهم، فقد تمكن التجار العرب الشاميون من بسط سيطرتهم التجارية على حوض البحر المتوسط في القرن الثالث والرابع الهجريين (٩ — ١٠م) فكسدت تجارة اليهود في منطقة الشرقين واستقروا بجوار نهر الرون وأصبحنا لا نجد لهم في هذا العصر وما يليه من العصور الوسطى ذكراً أو شأناً، لأن انتشار التجارة العربية الإسلامية ونموها أخرج التجار الأجانب من البحار التي سيطرت عليها سفن التجارة العربية الإسلامية، لأن أوروبا لم يكن لها حتى ذلك الوقت أي سلطان على البحر المتوسط، الذي أطلق عليه لفظ البحر العربي[٧٨] .

أثر العلاقات التجارية في بعض الجوانب الحضارية

ترتب على اتساع رقعة الاتجار انفتاح مجالات واسعة أمام العرب والمسلمين كانت مغلقة أمامهم من قبل، فقد غطت التجارة العربية الإسلامية مساحة عظيمة من عالم العصور الوسطى حيث انتشرت من حاضرة الدولة الإسلامية (بغداد) عبر الخليج العربي وهو المنفذ الطبيعي على البحار والمحيطات إلى أقصى الصين شرقاً، ثم اتجهت إلى الغرب فوصلت إلى أقصى الشمال من شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس)، وأصبح في مقدور التجار العرب

والمسلمين أن يتنقلوا بين المدن والبلدان يبيعون ويبتاعون دون أن يحول بينهم وبين تجاراتهم حائل[٧٩] وأصبحت الرحلة في سبيل التجارة أو التجارة في سبيل الرحلة لاكتساب المعرفة أوسع آفاقاً وأكثر أماناً واطمئناناً ومن الطبيعي أن هؤلاء التجار الرحالة لم يكونوا يمرون ببلد أو قطر دون أن يتعرفوا إلى أهله، ويقفوا على أحوالهم وأخبارهم وعاداتهم وتقاليدهم ومسلكهم مع الغرباء، فدونوا كل ما رأوه وما عايشوه وقصوا كل ما وقع لهم من نوادر وحكايات وما قابلوه وما تخطوه من صعوبات فنقلوا صورة واضحة عن كل جوانب الحياة، وتأثرت المجتمعات العربية والإسلامية تأثيراً كبيراً في كثير من نواحي حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والصناعية، وبالتالي تأثرت الحضارة العربية الإسلامية بهذه المؤثرات ولكنها مع كل هذا فقد أثرت بدورها على كثير من الحضارات الأخرى، ومن ضمنها الحضارات التي كانت قد تأثرت بها من قبل .

فمما لاشك فيه أن حضارات عالم العصور الوسطى كانت متقاربة ومتأثرة كل بما سبقها أو بما عايشها من حضارات نتيجة الاتصالات المختلفة بين الشعوب وخاصة الاتصالات التجارية والبعثات السياسية والاحتكاكات الحربية فحضارة الرومان مثلاً تأثرت وأخذت كثيراً من حضارتي الإغريق والفرس، كما أن حضارة الفرس كانت قد تأثرت بحضارة اليونان من قبل وكذلك بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية التي تأثرت في بادئ أمرها بالحضارة الآرامية ثم ما لبثت أن تأثرت بالحضارات اليونانية والفارسية والرومانية بل بحضارة الهند والصين وغيرهما من البلدان التي اتصل العرب والمسلمون بها عن طريق التجارة والسياسة أو الفتح والغزو[٨٠]، ولكن الحضارة العربية امتازت بأنها مزجت كل هذه التأثيرات الحضارية وأخرجت منها حضارة تتمشى مع الروح والتقاليد والعادات والنظم التي تتفق مع التشريع الإسلامي[٨١] .

ففي مجال الحياة الاجتماعية نجد أن نواح ليست بالقليلة في عادات العرب في طعامهم وملابسهم وموسيقاهم وغنائهم قد تغيرت بسبب اختلاط العرب بالموالي[٨٢] الذين قامت على أكتافهم تطورات كبيرة في المجالات التجارية والزراعية والصناعية . فالأسواق التجارية كانت مراكز للبيع والشراء وملتقى كبار التجار حيث تعقد الصفقات بين تجار مسلمين وغير مسلمين، عرب وغير عرب، وكان التعارف يتم أثناء البيع والشراء، وكان كثير من الفرس والعرب يعملون في هذه الأسواق التي اختلطت فيها عناصر مختلفة من هنود وصينيين وظهرت عادات وتقاليد مجلوبة من أماكن قاصية أو دانية، فتأثرت جوانب من حياة العرب (والفرس والهنود والصينيين) الاجتماعية نتيجة هذا الاختلاط فقلدوها في معاشهم، وحاكوها في سلوكهم وتصرفاتهم اليومية، وانتقلت هذه العادات من الأسواق إلى الأمصار ثم إلى البيوت والأسر والأفراد حتى أصبحت جزءاً لا ينفصم من حضارة المجتمع الذي انتقلت إليه .

فالمقدسي يذكر لنا أن أهل سيراف كانوا يمدون شراعات بين الأسطح لتقي التجار لفحة الشمس الحارقة أثناء مزاولة البيع والشراء، وقد نقلت هذه العادة مع انتشار حركة التجارة في مدن الخليج كلها ثم ما لبثت أن انتقلت إلى أسواق مدن البلدان الإسلامية الأخرى، ثم استعملها أهل مصر على صحون مساجدهم عند صلاة الجمعة لتقي المصلين حرارة الشمس، ثم استعملتها مساجد البصرة وشيراز كذلك، ويرجع المقدسي أن أصل هذه الشرع يعود إلى عصر الحضارة اليونانية في الشرق حيث كانوا يضربونها على حلقات ملاعبهم . ص٢٠٥، ٤٣٠

ومن أمثلة ذلك في مجتمعنا العربي بمنطقة الخليج نجد أن نظام المائدة قد تغير عن ذي قبل حيث تنوعت أصناف الطعام وكثرت أنواع الفاكهة

المستوردة من الصين والهند على المائدة أثناء الوجبة الواحدة بعد أن كان العربي لا يحب إلا صنفاً واحداً من الطعام على مائدته .

واستعمل العربي بكثرة أغلى الثياب المصنوعة في الهند، وكان بعضها موشى بالذهب أو الفضة واتخذت المرأة العربية في الخليج حلياً لزينتها من الجواهر واللؤلؤ والذهب والفضة وزينت بيتها بخزائن وزهريات من صنع الهند والصين ملأتها بما يطيب لها من نباتات عطرية[٨٣] .

وفي مجال العمارة نجد أن البناء في عصر صدر الإسلام كان بسيطاً وكانت البيوت مكونة من دور واحد ثم ما لبث فن العمارة منذ القرن الثالث الهجري (٩م) أن تأثر من ناحية الشكل والزخرفة والرسوم وما أدخل عليه من حمامات رسمت قاعاتها وما غرس به من حدائق وبساتين، وانتشر هذا الطراز في العالم الإسلامي العربي بصفة عامة وفي العراق بصفة خاصة، وكان لمشاهدات التجار والرحالة العرب وما نقلوه من أوصاف للقصور والأبنية التي زاروها أثر كبير على العمارة، فالخليفة المتوكل على الله أحدث بناءً لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيري[٨٤]، وكان أصل هذا البناء يونانياً شرقياً وأصبح هذا النمط متبعاً في بناء القصور الكبيرة التي كان لها مقدم وثلاثة أجزاء أوسطها الباب الأكبر، وإلى جانبيه البابان الصغيران (ويسميان عند العرب الكمين) الأكمام ولم يلبث الناس أن قلدوا هذا الطراز المعماري تيمناً بالخليفة المتوكل[٨٥] .

ولكن حفائر سامراء قدمت للأثريين طرازاً آخر من هذا البناء حيث وجد أن الباب الأوسط يزيد على البابين الجانبيين في الارتفاع والاتساع، وهذا طراز هليني متأثر بالحضارة اليونانية في الشرق، وهو مأخوذ من بوابات الأحياء وأقواس النصر، وقد بنى أحمد بن طولون واجهة قصره في مصر على هذا النمط ولكنه جعل الأبواب الثلاثة متساوية في الارتفاع والاتساع[٨٦] .

كما نقل طراز سامراء في بناء مئذنة مسجده التي مازالت قائمة تشهد على هذا التأثير الذي استحدثه العراق من معابد الفرس المعروفة باسم زاجورات(٨٧).

ويذكر هيل Hell أن كثيراً من هذه التأثيرات التي دخلت على فن العمارة في العالم الإسلامي كان مرده استخدام عمال بيزنطيين أو من رعايا الشعوب التابعة للدولة الإسلامية . ويتضح هذا التأثير في قبة الصخرة على مسجد عمر بن الخطاب التي بنيت في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وتشير الدراسات التي أجريت على أوراق البردي أن هذا التأثير شمل المساجد والقصور ولكن ما أدخله العرب المسلمون على التأثيرات البيزنطية من عناصر فنية جديدة مثل الزخرفة بالكتابة، والنقش والأشكال الهندسية جعل طرز البناء طرزاً إسلامية(٨٨) ويذكر بارتولد أن الفرس والنصارى كانوا يقومون ببناء المساجد وقصور الخلفاء ولهذا تأثرت هذه الأبنية بفنونهم(٨٩).

كذلك أدخل أهل سامراء على **الحمامات العامة** التي عرفها العرب والمسلمون عن الرومان نوعاً من الزخرفة التي عرفوها عن الفرس قبل عهود الإسلام فبدلاً من استعمال القاشاني الملون أو الموزايكو في تزيين ردهات الحمامات وغرفها مثلما استعملها أهل الشام ونقلوها عن حضارة اليونان في عصورها الأخيرة في الشرق(٩٠) نجد أن أهل سامراء كانوا يستعملون الصور في تزيين الردهات والحجرات وأكثر ما رسموه في هذه الحمامات صورة العنقاء(٩١) ثم انتشرت هذه الظاهرة في حمامات المدن الإسلامية الأخرى مثل فارس والعراق والشام ويرجع السبب في انتشارها إلى العلاقات التجارية التي ازداد نشاطها كثيراً بين دول هذه المنطقة والتي لعب أهل الخليج فيها الدور الأول بسفنهم ورحلاتهم التجارية .

واستعمل العرب أسلوب الزخرفة والتطعيم بسن الفيل والذهب والفضة فقد استعمل خلفاء بني أمية هذا الأسلوب في قاعات جلوسهم . ويروي المؤرخون

بعض تفاصيل عن الشجرة الذهبية التي كانت تتوسط منظرة الخليفة والفيل الذهبي ذي العيون الياقوتية، وروائع الفن الهندسي في زخرفة التنورات، وقد أخذت هذه الجوانب عن الهند والصين ثم انتشرت في المشرق العربي الإسلامي وخاصة على عهد العباسيين حيث عمت مساجد العالم الإسلامي، ولكن أدخلت على هذه الفنون الزخرفية تعديلات تواكب المجتمع الإسلامي .

وفي الجانب الثقافي وكنتيجة لانتشار حركة التجارة العربية الإسلامية بين مدن الخليج وبلدان الشرق الأقصى نجد أن العرب اتخذوا اللغة الفارسية للتخاطب بها مع تجار هذه المناطق في الهند والصين وجزر جنوب شرقي آسيا، والجاحظ[٩٢] يذكر لنا أن عامة أهل العراق كانوا يتحدثون بالفارسية رغم أنهم عرب، ويعلل ذلك أنهم وجدوها خفيفة على لسانهم . ولكني أرى أن السبب في تحدثهم بالفارسية هو مزاولة معظمهم — إن لم يكن جميعهم — لأعمال التجارة واضطرارهم للتعامل مع التجار القادمين إليهم من الفرس أو الهند أو الصين وعقد الصفقات التجارية معهم في أسواق مدن الخليج، فكان لابد لهم من التفاهم مع هؤلاء التجار بلغة يفهمونها وكانت هي اللغة الفارسية .

وقد ترتب على استعمال اللغة الفارسية في الأعمال التجارية والملاحية أن دخلت أعداد غير قليلة من المصطلحات البحرية والكلمات الفارسية في اللغة العربية مثل ناخدا (صاحب السفينة)، ربان أو معلم (قائد السفينة) وربما كان أصلها (رهـ بان)، سرهنك (مرشد الميناء المسئول عن إرساء السفينة)، ديدبان (حارس المركب)[٩٣] .

وليس معنى هذا أن اللغة العربية لم تؤثر بدورها هي الأخرى في اللغة الفارسية واللغات الأخرى فقد دخلت كلمات عربية كثيرة إلى لغات هذه الشعوب نتيجة الاتصال التجاري على وجه الخصوص بل إن اللغة العربية

والخط العربي فرضا نفسيهما على الفرس والرومان فكتبت الفارسية والتركية بالخط العربي، كما دخلت مصطلحات وكلمات عربية كثيرة في لغات شعوب وسط آسيا وأوروبا[٩٤].

وربما يظن ظان أن الثقافة العربية تأثرت بثقافة اليونان أكثر من تأثرها بأي ثقافة أخرى، وردنا على هذا القول بالنفي الصريح، لأن الثقافة العربية تأثرت حقيقة تأثراً كبيراً بالثقافة الفارسية، لأن دولة الفرس انصهرت في الدولة الإسلامية، ولأن حياة الفرس الاجتماعية كانت تحت أعين العرب يعرفونها ويعايشونها فتذوقوا شيئاً منها على عكس الحياة اليونانية التي كانت نائية عن العرب، ولم يحدث بينهم وبين العرب اختلاط كما حدث مع الفرس، كما أن نظم اليونان تخالف تعاليم الإسلام فهؤلاء لهم نظمهم الاجتماعية والسياسية التي لم يعرفها العرب، ولهذا نجد أنه من العسير أن نجد كلمات أو اصطلاحات يونانية في الأدب العربي شعراً أو نثراً، ولا يمكن أن نجد شاعراً من أصل يوناني أو روماني انصهر في البوتقة العربية وأخرج للثقافة العربية شيئاً، وعلى العكس من ذلك نجد أن عدداً غير قليل ممن اشتغلوا بالأدب العربي ترجع أصولهم إلى الفرس، كما تأثر مؤرخو العرب المسلمين في تلك العهود بطريقة الفرس في تدوين الأحداث التاريخية ولم يتأثروا بالنمط اليوناني[٩٥].

حتى في جانب التعليم الأولي (الكُتاب) ظهرت آثار العلاقات التجارية لأنه كان من نتائج تطور وازدهار التجارة في منطقة الخليج أن أصبح التجار في حاجة ماسة إلى كتبة ومحاسبين يمسكون دفاتر حساباتهم (زماماتهم) ويخطون المراسلات إلى التجار الذين يتعاملون معهم في بلدان أخرى، وقد دفعهم هذا الاحتياج إلى فتح كتاتيب خاصة لتعليم أبنائهم وأبناء الفقراء الذين لا يملكون دفع ما يطلبه الملا أو المطوع (معلم الكتاب) من نفقات،

وقام كبار التجار بالإنفاق من أموالهم الخاصة على هذه الكتاتيب التي كانت تقوك بتعليم علوم مبدئية في علم الخط والقرآن والحساب[٩٦] ومع أن حركة الازدهار كانت تسير بسرعة في منطقة الخليج إلا أن هذه الكتاتيب لم ترقِ إلى مرتبة المدارس، وظلت على حالها طوال فترة العصور الوسطى وجزءا من العصور الحديثة .

وفي محيط الزراعة نجد كذلك أن للعلاقات التجارية أثراً كبيراً حيث جلب التجار أنواعاً من الفاكهة أو الحبوب فزرعت في بلدان منطقة الخليج ونمت بها ولعبت دوراً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لدى العرب، فعمان أول بلد عربي إسلامي زرع به النارنج والأترج[٩٧] الذي جلب من الهند، ويحدد المسعودي[٩٨] الوقت الذي جيء به من الهند والبلاد التي انتقل إليها من عمان فيقول : "... وكذلك شجر النارنج والأترج المدور جُلب من أرض الهند بعد الثلثمائة الهجرية وغيرها من الثغر الشامي وأنطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر" . كذلك جُلب القطن وقصب السكر سنة ١٣٣هـ من الهند[٩٩] وعرفت بعض الدول العربية الإسلامية وخاصة العراق هذه الزراعة ومنها نقلت إلى صقلية وقبرص أثناء الحكم العربي لهما، ومن صقلية نقل العرب إلى أسبانيا زراعة القطن ولايزال يعرف في اللغات الأوروبية باسمه العربي[١٠٠] . وقد أقام العرب معامل لتكرير السكر في جنديسابور ثم في سوريا وفلسطين ومصر وشمالي أفريقيا وأسبانيا بعد أن عمت زراعة القصب في كل بلدان العالم الإسلامي .

وفي محيط الصناعة نجد أثر التجارة واضحاً، فالصين عرفت صناعة الورق منذ بداية القرن الثاني للميلاد (١٠٥م) ولكنه لم يكن مصقول الصنعة لأنهم كانوا يصنعونه من الحشائش كما يذكر القلقشندى[١٠١]، وظلت الصين تحتكر هذه الصناعة والتجارة الورقية إلى أن حاولت سمرقند سنة ٧٥٠م التحرر من حكم العرب لها، وقام الصينيون بثورة عارمة ولكنها أخمدت، ويقال أن

العرب أسروا بعض الصينيين الذين كانوا يعرفون سر صناعة الورق فأفضوا بها إلى العرب، وتأسس أول مصنع عربي سنة ٧٥١م[١٠٢] ثم انتقلت صناعته إلى بغداد سنة ٧١٤م على عهد الرشيد ثم إلى دمشق ومنها إلى دمياط بمصر ولم يكد القرن العاشر الميلادي ينتصف حتى تعددت وتحسنت صناعة الورق وكثرت أنواعه[١٠٣] ورخصت أثمانه، وبذلك تحررت الكتابة من احتكار مصر للمادة التي كان يكتب عليها ونعني بها ورق البردي، وذلك بفضل ما أدخله العرب على هذه الصناعة الهامة التي أحدثت انقلاباً في مجال الثقافات والحضارات المختلفة من تعديلات وتحسينات حيث صنعوا الورق من بقايا المنسوجات القديمة (الخرق) وقد استلزم هذا مهــارة وحذقاً فنياً توفرت مقوماتهما عند العرب .

وعن طريق التجارة تأثرت صناعة النسيج في بلاد الفرس فمدينة كازرون كانت أكبر مدنها لصناعة الكتان لدرجة أنها كانت تسمى (دمياط الأعاجم) وكان الكتان ينقل بطريق البحر وكانت مراكز صناعته في أول الأمر المدن الساحلية ومن ضمنها بطبيعة الحال مدن الخليج .

ويفهم مما ذكره المقدسي أن زراعة وصناعة الكتان نقلت إلى فارس من مصر قبل أن تقوم فارس بزراعة الكتان عندها[١٠٤] .

ويذكر برتشنايدر أن الهند كانت مركز زراعة القطن، وأن الصين لم تعرف زراعته حتى القرن الثالث عشر الميلادي، وكانت الهند منذ القرن الرابع الهجري (١٠م) تصدر ثياباً مصنوعة من قطن مشهور بالجودة يصنع منه ما يسمى بالسينيات[١٠٥] إلى مدن الفرس وبلاد الصين لأن القطن حتى ذلك الوقت (٤هـ) لم يكن يزرع بالعراق ولا بخراسان ولا بمصر كذلك[١٠٦] .

كذلك تأثرت صباغة المنسوجات وألوان الملابس بفضل التجارة التي كان من أثرها توحيد شكل الملابس وألوانها، ذلك لأن البلدان الإسلامية عرفت

المادتين الأساسيتين في الصباغة وهما النيلة والقرمز، وقد استعملت أولاهما في الصباغة باللون الأزرق والثانية في الصباغة باللون الأحمر، وكان مصدر النيلة بلاد الهند بمدينة كابل[١٠٧] وما حولها، وكانت أرمينيا (إقليم أرارات) مصدر القرمز[١٠٨].

أدى التوسع في العلاقات التجارية إلى التحول من نظام المقايضة إلى معرفة السكة (النقود) وتوصلت البلدان التجارية إلى استعمالها في البيع والشراء[١٠٩]، وكانت العملة السائدة في بلدان ومدن الخليج العربي هي الدرهم والدينار، واستعملت الدراهم بكثرة لأن الدنانير كانت قليلة الاستعمال أما الصين فكانت أول بلد في العالم يستعمل العملة الورقية وكانت عبارة عن قطعة من الكاغد بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وكل خمس وعشرين قطعة منها تسمى شست وتساوي ديناراً واحداً[١١٠].

كذلك عرفت أنواع من المكاييل والموازين كانت الوحدة السائدة في المعاملات التجارية مثل المن الصغير (٢٦٠ درهماً) والمن الكبير (١٠٤٠ درهماً) وقد اختلفت موازين بعض البلدان مثل الهند التي كان المن فيها يوازي ٣٠٠ درهم واصطخر التي كان المن فيها يوازي ٤٠٠ درهم . أما المكاييل فكانت تتضمن الجريب ويوازي ١٦٠ رطلاً والقفيز ويوازي ستة عشر رطلاً، والرطل ١٣٠ درهماً[١١١].

وكان من نتائج العلاقات التجارية كذلك أن عرفت البلدان الإسلامية وخاصة بغداد نظام جوازات السفر الذي نقلته عن الصين، والسبب في ذلك كما يرويه صاحب الأغاني أن هارون الرشيد أرسل قائداً على جسر النهروان يتصفح وجوه الناس الداخلين بغداد، وأن يأتيه بالمؤمل الشاعر، ويعني هذا أنه حتى القرن الثاني الهجري (٨م) لم يكن بالمشرق العربي نظام لضبط أسماء

الغرباء قبل دخولهم من أبواب المدن . وظل الحال على ذلك حتى القرن الثالث الهجري (٩م) عندما تكلم أحد الرحالة المسلمين عن نظام جوازات المرور المعروف بالصين[١١٢]، ولما استقرت الفكرة في الأذهان أدخل السلطان عضد الدولة نظام مراقبة أبواب عاصمة بلاده (شيراز) لأول مرة في القرن الرابع الهجري (١٠م) ويبدو أن الناس تضايقوا من أمر هذه الجوازات لأننا نجد المقدسي[١١٣] يعبر عن هذا الضيق بقوله : "ومنع الخارج منها إلا بجواز، وحبس الداخل والمجتاز" .

هناك نتيجة هامة وأثر بارز من آثار العلاقات التجارية في بعض الجوانب الحضارية ونعني به انتشار الدين الإسلامي في بعض جهات من بلدان الشرق الأقصى، حيث تكونت جاليات عربية وإسلامية واستقرت ونمت في كثير من أطراف الصين والهند، وقد لعبت هذه الجاليات دوراً بارزاً نشطاً في نشر الإسلام بهذه المناطق البعيدة، كما كانت عاملاً فعالاً في تهذيب أخلاق الناس، والحفاظ على أعراضهم وكرامتهم، فحرمت الأعراض على الغرباء إلا بالزواج وكانت قبل ذلك مباحة[١١٤] وأصبح شرب الخمر محظوراً بعد أن كان يحتسيه الكبير والصغير .

انفردت هذه الجاليات الإسلامية في مدن الهند والصين بسكناهم وكان لهم في كل مدينة حي يقيمون فيه مساجدهم لإقامة شعائرهم الدينية، وكانوا معظمون محترمون، وكان لكل جالية رئيس منهم يتولى أمرهم، ويقيم القضاء فيهم، وينظر في شئونهم ومصالحهم وكانوا لا يقبلون غير حكم المسلمين فيهم، ولا يقبلون إلا شهادة المسلمين عليهم[١١٥] .

هذه دراسة موجزة عن العلاقات التجارية وأهميتها بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى أوضحت فيها أن العامل التجاري بكل جوانبه كان سبباً

في نقل بعض الجوانب الحضارية من هذه البلدان البعيدة إلى العالم العربي الإسلامي، وأن دور الإنسان العربي في تقبل هذه الجوانب الحضارية وهضمها وصهرها في البوتقة العربية الإسلامية واستخراج جديد منها للعالم يتميز عن سابقه من الحضارات السابقة بما يتلاءم مع البيئة العربية والشريعة الإسلامية يرجع إلى قدرته الذاتية واستعداده الفطري وتوفر الإمكانيات ووجود الفرصة المناسبة لذلك .

وغرضي من وراءهذه الدراسة هو تبيان الحقيقة بأنه لا ضير مطلقاً على أي حضارة أن تتأثر من حضارات سابقة عليها أو معاصرة لها طالما هي تطور هذه الحضارات لمصلحة المجتمع الإنساني نفسه بما يتمشى مع روح التقدم والازدهار، وأن الذين يتعصبون لحضارة ما من الحضارات وينكرون تأثرها بأي نوع من الحضارات لايرفعون بتعصبهم هذا من قيمة ما يتعصبون له، بل على العكس من ذلك فهم يجعلونه كما لوكان نبتاً شيطانياً ليس له جذور أو أصول يستمد منها الحياة . ومع اعترافنا بما للحضارات الأخرى من أثر في الحضارة العربية فإننا نقرر مطمئنين أن الحضارة العربية الإسلامية قد أثرت في كثير من جوانب الحضارات الأخرى مما نلمس أثره إلى يومنا هذا .

دكتور أحمد الشامي
مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية التربية والمعلمين — الدوحة — قطر

هوامش وتعليقات

١ – القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٢، ص٥٥ .

٢ – ابن حوقل : صورة الأرض، ص٣٨ .

٣ – المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٣٨ .

٤ – ابن بطوطه : الرحلة، ص٢٦٦-٢٦٧ .

٥ – المرجع السابق، ص٢٧١ .

٦ – الأباضية : فرقة من الخوارج تبعوا عبد الله بن أباض المري .

٧ – المسعودي : مروج، ج ١، ص١٩١ .

٨ – المقدسي : ص٤٦٦ .

٩ – ابن حوقل : ص٥٥ ؛ ابن بطوطة ص٢٧٣ .

١٠ – مفرده (سبخه) وهي أرض ذات نز وملح .

١١ – Al-Balkki: Description of the Province of Fars in Persia at the beginning of the Fourteenth Century. Trans. By G. Le Strange, PP. 41-43, Royal Asiatic Society, London 1912.

١٢ – المقدسي : ص٤٢٦-٤٢٧ ؛ ياقوت : ج ٣، ص٢٩٤-٢٩٥ .

١٣– نقولا زيادة : الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص١٤٨ .

• الأصطخري : مسالك الممالك، ص١٣٨ وما بعدها .

• آدم ميتز : الحضارة العربية، ص٤٣٩ ؛ بزرك بن شهريار : كتاب عجائب الهند، ص٩٨ .

١٤ – ياقوت : ج ٣، ص٢٩٤ وما بعدها .

١٥ – المسعودي : مروج، ج ١، ص١٠٧-١١٢ ؛ ابن خرداذبه : المسالك والممالك، ص٦٠ .

١٦ – ياقوت : ج ٤، ٢٧٣ .

١٧ – لوريمر : دليل الخليج، ج ٢ ص٦٢٨-٦٢٩ .

١٨ – المرجع السابق، ج ٦، ص١٩٤١ .

٥٥ — لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذه المراكب ارجع إلى المصادر الآتية :

الطبري : ج ٣، ص٩٥٢ وما بعدها ؛ ابن الأثير : الكامل، ج ٨، ص٤٧٧ ؛ آدم ميتز : الحضارة، ج ٢، ص٣٩٤ ؛ ابن بطوطه : الرحلة، ص٢٧٥ ؛ البغدادي : مراصد الاطلاع ؛ الجهشاري : الوزارة ؛ حوراني : ص١١٥ ؛ أحمد بن فضلان : رسالة ابن فضلان ؛ عبد الأمير محمد أمين : القوى البحرية ؛ الأصطخري : مسالك ؛ المسعودي : مروج ؛

Lorimer, G.G.; Guide of Gulf, Part II, P. 2321.

٥٦ — القرآن الكريم : سورة هود ١١/٣٧، ٤١ .

٥٧ — القرآن الكريم : سورة القمر ٥٤/١٣-١٤ .

٥٨ — القرآن الكريم : سورة النحل ١٦/١٤ .

٥٩ — الأصطخري : ص٣٤-٣٥ .

٦٠ — حوراني : ص١٠٠ .

٦١ — المسعودي : ج ١، ص٢٣٤ ؛ ج ٣، ص٦ وما بعدها .

٦٢ — Chau- Ju- Kua; Chinese and Arab Trade, P. 137.

٦٣ — الأصطخري : ص٣٤-٣٥ ؛ المقدسي : ص١٨٠، ٢٠٣ .

٦٤ — الطبري: ج ٣ .

٦٥ — آدم ميتز : ج ٢، ص٢٧٠-٢٧١ .

٦٦ — راجع انتكاسة التجارة في الخليج العربي، أديسون : تجارة العصور الوسطى ص٥٧

Adeson; Medival Commerce, P.57, New York 1961

Archibald, Lewis; Naval Power and Trade in the Mediterranean, A.D. 500-1100, P. 171, New Jersey 1951.

٦٧ — ابن خرداذبه : ص٦٤-٦٩ ؛ آدم ميتز، ص٢٧١ .

٦٨ — المسعودي : ج ١، ص١١١-١١٢، ١٥٢ .

٦٩ — المسعودي : ج ١، ص١٥٠ ؛ ياقوت : ج ١، ص٣٤٣ .

٧٠ – آدم ميتز : ص٣١٤ نقلاً عن سلسلة التواريخ (طبعة Renaud) ص٣٦ .

٧١ – الهمداني : ص ٢١٩، ٢٥٤ .

٧٢ – الأصطخري : ص١٥٤-١٥٥ .

٧٣ – ابن بطوطة : ص٦٢٧-٦٢٩ .

٧٤ – المرجع السابق ص٢٥٩-٢٦٠، ٣٣٩ .

٧٥ – المرجع السابق ص٦٢٩ .

٧٦ – المروزي : أبواب الصين، ص١٠ ؛ ابن بطوطه : ص٢٥٤ .

٧٧ – كان المسلمون يطلقون في القرن الثلث الهجري (٩م) على التجار اليهود "تجار البحر" فقط وكان يقال لهم "الرهدانية أو الراذانية" . راجع الهمداني : ص٢٧٠ وابن خرداذبه ص١٥٣ وما بعدها .

٧٨ – آدم ميتز : ص٤٣١-٤٣٢ .

٧٩ – نيقولا زياده : ص١٤٧-١٤٨ .

٨٠ – محمد كرد علي : ص١٨٠ .

٨١ – الخربوطلي : ص٧٤-٧٥ ,

٨٢ – كريمر : الحضارة، ص٧٨ ؛ الخربوطلي : ص١٠٠ .

٨٣ – Wilson, A.'nold; The Persian Gulf, P. P. 105-106. وكذلك نيقولا زياده ص٢٤١ .

٨٤ – الأصطخري : ص٨٣ .

٨٥ – المسعودي : ج ٤, ص٨٧ ؛ اليعقوبي : ص٢٦٦ .

٨٦ – المقريزي : الخطط، ج ١، ص٣١٥ .

٨٧ – أحمد فكري : مساجد القاهرة - المدخل، ص١١١، ٢٣٧-٢٣٨ .

٨٨ – Hell., J.: The Arab Civilization, PP. 70-71; Geirut 19'3.

٨٩ – بارتولد . ف : الحضارة، ص٢١ .

٩٠ — Sarre U. Herzfeld; Erester Vorlaufiger Bericht uber Ausgrabungen von Samarra`, S. 24 Berlin 1912.

٩١ — المسعودي : ج٣ ص٢٩ .

٩٢ — جوستاف لبون : حضارة العرب، ص٦١٤ .

٩٣ — الجواليقي : المعرب تحت حرف الدال، والراء، والنون ، وكذلك قاموس دوزي، Persich, Deutsch- Worterbuch

٩٤ — Oxford Dictionary; New English Dictionary on Historical Principles, and Taylor, W.; Arabic Words in English S.P.E. Tract No. 38.

٩٥ — أحمد أمين : فجر الإسلام، ص١٣٩ .

٩٦ — عبد المجيد مصطفى : ص٣١٣ وما بعدها ؛ حسن محمود : ص٢٥٢-٢٥٣ .

٩٧ — راجع وصف هذه الفاكهة عند ابن حوقل ص٢٢٨ .

٩٨ — المسعودي : ج ٢ ص٤٣٨-٤٣٩ ؛ المقريزي : ج ١، ص٢٨ .

٩٩ — جوستاف لبون : ص١٦٩ وما بعدها ويرى ابن حوقل (ص٢٢٣ و٣٢٨) أنه حتى القرن الرابع الهجري (١٠م) لم يكن القطن يزرع بالعراق ولا بخراسان ولا بمصر كذلك .

٩٩م — بارتولد : ص٨٠ .

١٠٠ — القلقشندي : ج ٢، ص٤٧٥ .

١٠١ — يرى جوستاف لبون وجورج يعقوب أن العرب هم أول من صنع الورق، وأنهم أول من استعمل الكاغد بدلاً من الرق، ويستدلان على ذلك بالمخطوطة التي عثر عليها في مكتبة الاسكوريال بمدريد، والمدونة سنة ١٠٠٩م على ورق مصنوع من القطن، ونحن لا نميل إلى هذا الرأي إذ الثابت حتى الآن أن صناعة الورق بدأت في الصين سنة ١٠٥م، وأن العرب لم يعرفوا صناعته إلا بعد ما يزيد على ستة قرون، ولكنهم تمكنوا من تطوير هذه الصناعة، وإدخال تحسينات وتعديلات جذرية عليها منذ القرن ٣هـ (٩م) حتى ظن البعض أن العرب هم أول من أقام هذه الصناعة .

١٠٢ — آدم ميتز : ج ٢، ص٢٠٩، ٣٠٥، ٣٠٨، وربما كان هذا القول من قبيل التعميم بدليل أن أوراق البردي العربي ظلت مستعملة في الكتابة إلى حوالي القرن ٦هـ (١٢م) ومجموعات البردي

المختلفة بها العديد من الوثائق التي يرجع تاريخها إلى هذا القرن . راجع بحثنا عن أوراق البردي العربي من مجموعة هذه البحوث .

١٠٣ – المقدسي : ص٤٣٣–٤٣٥، ٤٤٢ .

١٠٤ – Bretschneider; Nediaeval Researches. I, PP. 70-71.

١٠٥ – ابن حوقل : ص٣٢٨، ٢٢٣ .

١٠٦ – المرجع السابق .

١٠٧ – الأصطخري ص١٨٨–١٩٠ .

١٠٨ – عباس العزاوي : النقود العربية في العراق .

١٠٩ – ابن بطوطه : ص٦٢٩ .

١١٠ – الأصطخري : ص١٥٦ .

١١١ – الأصفهاني : الأغاني ج ١٩، ص١٤٧ .

١١٢ – آدم ميتز : نقلاً عن سلسلة التواريخ، ص٤٢ (طبعة Renaud) .

١١٣ – المقدسي : ص٤٢٩ .

١١٤ – ابن خرداذبه : ص٦٦–٦٧ .

١١٥ – ابن حوقل : ص٢٢٥ وما بعدها ؛ وابن خرداذبه : ص٧٥ .

المراجع العربية

١ – ابن الأثير : أبو الحسن عز الدين بن الأثير الجزري
الكامل في التاريخ (١٢ جزءا) بيروت سنة ١٩٦٧ .
٢ – ابن بطوطه : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي (شمس الدين)
رحلة ابن بطوطه – بيروت سنة ١٩٦٤ .
٣ – ابن حوقل : أبو القاسم محمد
كتاب صورة الأرض، بيروت (بدون تاريخ) .
٤ – ابن خرداذبه : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله
المسالك والممالك، صورة مصورة على نسخة من ليدن سنة ١٨٨٩م .
٥ – ابن خلدون : عبد الرحمن
المقدمة، القاهرة ١٩٢٢م .
٦ – ابن رسته : أبو علي أحمد بن عمر
الأعلاق النفيسة، ليدن سنة ١٨٩١م .
٧ – أحمد أمين
فجر الإسلام، ط ٤/ النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٦م .
٨ – أحمد بن فضلان
رسالة ابن فضلان، المجمع العلمي العربي، دمشق سنة ١٩٥٩ .
٩ – أحمد بن ماجد
ثلاث أزهار في معرفة البحار، تحقيق ستوبوفسكي، ترجمة د. محمد منير موسى، عالم الكتبشن القاهرة سنة ١٩٦٩ .
١٠ – أحمد فكري (دكتور)
مساجد القاهرة (المدخل) القاهرة سنة ١٩٦١ .
١١ – آدم ميتز
الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري (جزءان) ترجمة أبو ريده، ط ٤، بيروت سنة ١٩٦٧م .
١٢ – الأصطخري : أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي
مسالك الممالك، ليدن سنة ١٩٢٨م .
١٣ – الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد

كتاب الأغاني (٢١ جزءاً) دار الفكر، سنة ١٩٧٠ .
١٤ — بارتولد ف
تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، المعارف سنة ١٩٤٣ .
١٥ — بدوي : عبد الرحمن (دكتور)
دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٧ .
١٦ — بزرك بن شهريار
كتاب عجائب الهند .
١٧ — البغدادي : صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، القاهرة سنة ١٩٦٥م .
١٨ — البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر
كتاب فتوح البلدان (ثلاثة أقسام) النهضة بمصر سنة ١٩٦٥ .
١٩ — الجواليقي : أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الخضر
المعرب من الكلام الأعجمي، دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٩ .
٢٠ — جوستاف لبون
حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٤٨ .
٢١ — حسن سليمان محمود (دكتور)
الكويت ماضيها وحاضرها، الأهلية بغداد سنة ١٩٦٨م .
٢٢ — حوراني : جورج فضلو (دكتور)
العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨م .
٢٣ — الخربوطلي : علي حسني (دكتور)
العرب والحضارة، الأنجلو، القاهرة سنة ١٩٦٦ .
٢٤ — زياده : نقولا (دكتور)
الجغرافيا والرحلات عند العرب، بيروت سنة ١٩٦٢م (دار الكتاب اللبناني) .
٢٥ — الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري
تاريخ الرسل والملوك (١٠ أجزاء) المعارف سنة ١٩٧٠ .
٢٦ — طرفة بن العبد
معلقة طرفة، (ديوان) صادر بيروت سنة ١٩٦١م .
٢٧ — عباس عزاوي
النقود العربية في العراق، بغداد (. . .)
٢٨ — عبد الأمير محمد أمين (دكتور)

القوى البحرية في الخليج العربي في القرن ١٨م، بغداد سنة ١٩٦٦م .
٢٩ – عبد العزيز الرشيد
تاريخ الكويت، بيروت سنة ١٩٧١م .
٣٠ – عبد المجيد مصطفى
دراسات عن الكويت، القاهرة سنة ١٩٦٤م .
٣١ – القزويني : زكريا بن محمد بن محمود
آثار البلاد وأخبار العباد، صادر بيروت، سنة ١٩٦٩م .
٣٢ – القلقشندي : أبو العباس أحمد
صبح الأعشى في صناعة الإنشا (١٤ جزءاً) دار الكتب المصرية سنة ١٩١٩م .
٣٣ – لوريمر ج – ج
دليل الخليج – القسم الجغرافي (٧ أجزاء) ترجمة مكتب سمو أمير قطر، الدوحة، (بدون تاريخ) .
٣٤ – المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي
مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ أجزاء)، التجارية بمصر سنة ١٩٦٤م .
٣٥ – مظهر : جلال
حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، القاهرة (بدون تاريخ) .
٣٦ – المقدسي : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ٢، ليدن سنة ١٩٠٦ .
٣٧ – المقريزي : أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) صادر – بيروت (بدون تاريخ) .
٣٨ – الهمداني : أبو بكر أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه
مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٨٨٥م .
٣٩ – ياقوت : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي
معجم البلدان (٥ أجزاء) صادر – بيروت سنة ١٩٧٥م .
٤٠ – اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب
كتاب البلدان، ط . دي جويه، ليدن سنة ١٨٩٣م .

المراجع الأجنبية

EUROPAISCHE HILFSQUELLEN

1 - Adeson; Medieval Commerce, P.57, New York 1961

2 - Archibald, Lewis; Naval Power and Trade in the Mediterranean, A.D. 500 - 1100, P. 171, New Jersey 1951

3 - Al-Balkhi; Description of the Provence of Fars in Persia at the beginning of the Fourteenth Century. Trans. by Le Strange, G., PP. 41-43 Royal Asiatic Society. London 1912

4 - Bell; Aphrodito papyri (J.H.S.) 115, Der Islam, II 1953

5 - Bretschneider; Medieval researches, I, S. 70-71

6 - Bury, J.B.; History of the later Roman Empire, London 1923

7 - Chau-Ju-Kua; Chinese and Arab Trade in the 12th and 13th Centuries. Trans. F. Hirth. W. Rochill, 1914

8 - Duden - Bild- Worterbuch, 3 B.

9 - Grohmann, A.; Arabien, munchen 1963

10 - Hell, Joseph; The Arab Civilization, Beirut 1973

11 - Indiorpleustes, Cosmas; Christian Topography,

12 - Oxford Dictionary; New English Dictionary on Historical principles.

13 - Persisch-Deutsch-Worterbuch. Berlin 2 Ausgabe

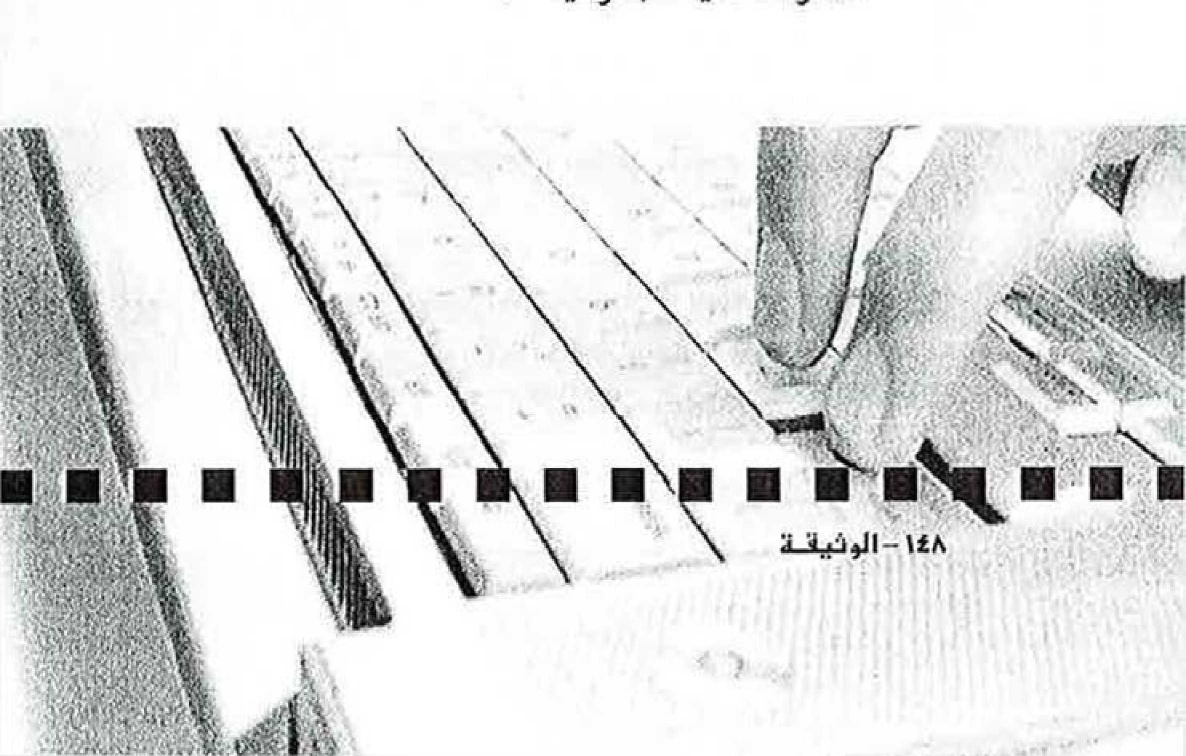
14 - Sarre und Herzfeld; Erester vorlaufiger Bericht Uber die Ausgrabungen Von Samarra, S.24, Berlin 1912.

15 - Taylor, W.; Arabic Words in English, S.P.E. Tract No 38

مواقع الحضارة العربية
على شبكات

بقلم : يسرى صادق جلال

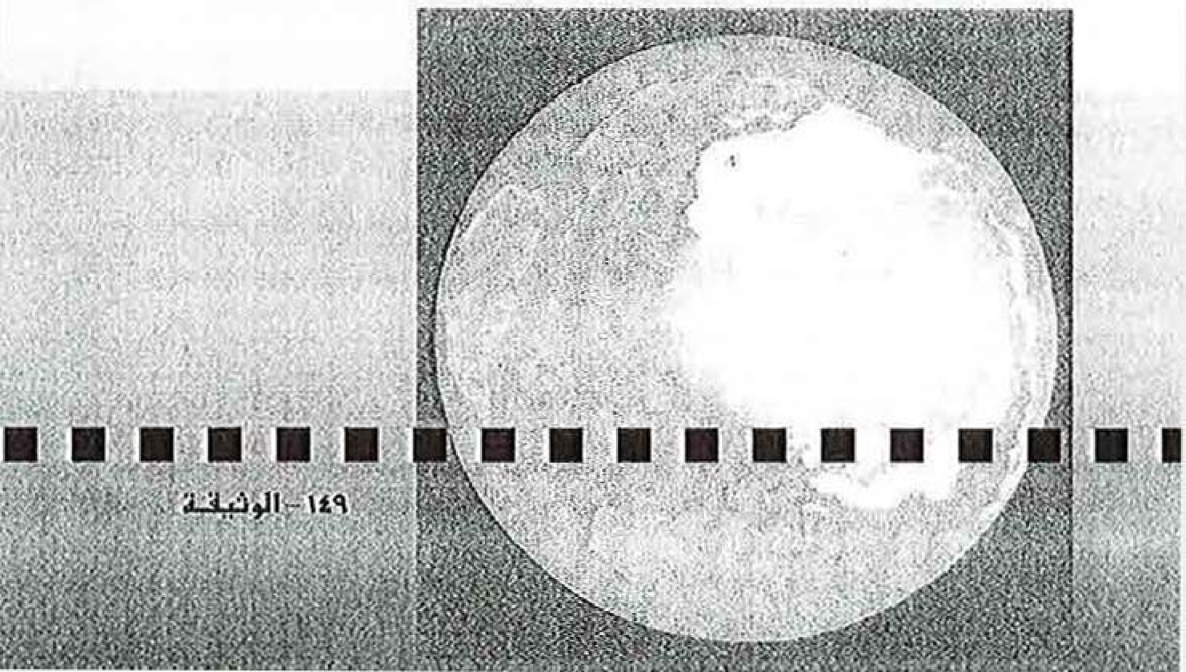
شهد العقدان السابقان من القرن العشرين، ازدياداً هائلاً في المعلومات، وتسارعاً كبيراً في تكنولوجيا الاتصال والأقمار الصناعية، ظهرت لهذا شبكة المعلومات العالمية **Internet**، أدى ذلك إلى تقارب الجغرافيا، حيث صارت الاتصالات مصدر الشفافية الجغرافية[١].



والتراث ...

المعلومات العالمية

صاحب إلغاء المكان انحسار الوقت، السرعة الخدمات التي تقدمها الشبكة، ومع انتشار أفكار العولمة، والنظام العالمي الجديد، والتنافس العالمي، ظهرت هيمنة أخرى، هيمنة الثقافات واللغات الأجنبية، أصبحت السلطة المعلوماتية في أيدي الدول الصناعية المتقدمة (دول الشمال)، فأزاحت اللغات والثقافات المحلية، وأصبح المستفيد مستهلكاً للثقافات الغربية، مما وضع الثقافة العربية واللغة أمام تحد كبير، لتدارك الموقف، وعدم الانتظار على رصيف الإنترنت.



إن هذا العقد عقد المعلومات وحضارة الاتصالات، دخلت المعلومات كمتغيرٍ اقتصادي واجتماعي جديد، صار العقل والمعرفة استثمارا تلاحقه الشركات العملاقة في العالم[٢] .

حدود البحث

تحدد البحث بالمواقع العربية الثقافية على الشبكة العالمية (الإنترنت) خاصة الحضارة العربية والتراث .

دخول المعلومات وتقنياتها كمتغير اقتصادي جديد[١]

اصبحت الاستثمارات العالمية على المعلومات وما إليها من أجهزة بمعدل ١,٥ مليار دولار سنوياً، ظهرت معها (اقتصاديات المعلومات)، وهو الاصطلاح الذي تزيد قوة العمل المعلوماتية عن قوة العمل الخاصة في القطاعات الأخرى كالزراعة، الصناعة، الخدمات[٣] .

ازدادت الاستثمارات الأمريكية، وإن مؤسسات مثل : IBM; Microsoft, Hewlett Packard تشتري خبراء من الهند[٤]، حيث نقلت صناعة أجزاء مهمة من نظم المعلومات إلى الهند مباشرة، فهيأت لهم حكومة نيو دلهي، كل الهياكل التحتية اللازمة من مختبرات مكيفة وشبكات اتصال عبر الأقمار الصناعية وبلا ثمن تقريباً، بلغ عدد العاملين في بنجلور ١٢٠,٠٠٠ من خريجي جامعات بومباي ونيودلهي ومدراس، كانت مبيعاتهم ١,٢ مليار دولار عام ١٩٩٥ .

ملايين الأسطر كتبها الهنود لشركة أمريكان إكسبرس لاستعمالها في العمل، في تايوان مباني تصمم، وتنفذ في أي مكان من العالم . . . تنامي

اقتصاد المعلومات مع زيادة عدد العاملين في المعلومات، مهمتهم إنتاج وتجهيز المعلومات، وأن نسبة لابأس بها من الأجور والرواتب تعتمد على أنشطة المعلومات .

دخول المعلومات وتقنياتها كمتغير اجتماعي جديد[٢]

إن دخول تقنيات المعلومات قد أحدث نقلة حادة في المجتمع وهي نقلة تربوية في جوهرها، برزت المعلومات كأهم مصادر القوة الاجتماعية تضاءلت أمامها في الأهمية الموارد الطبيعية والمادية، فأصبحت تنمية الموارد البشرية عاملاً حاسماً في تحديد قدر المجتمعات وقوتها .

تتداخل التنمية البشرية مع التربية، فصارت الاستثمارات في مجال التربية، أهم الاستثمارات عائداً، وقمة الاستثمارات على الإطلاق في الدول المتقدمة، سواء في هندسة الحاسبات أم هندسة البرامجيات لتغطية حاجة المجتمع . أنظر شكل رقم (١)

المواقع العربية والمواقع الثقافية العربية على الإنترنت

إن من أهم الخدمات التي تقدمها شبكة الإنترنت، هي إنشاء مواقع عليها[٥] . إن المواقع العربية لا تتناسب مع عدد سكان الوطن العربي* البالغ ٢٥٠ مليون إنسان وهي قليلة جداً[٦] . وأكثرها إدارية وليست ثقافية . . . أمام مواقع كثيرة متنوعة وحديثة مفيدة ومشوقة باللغات والثقافات الأخرى خاصة الإنجليزية، تغري المستفيد العربي . . . وإذا سلمنا أن قواعد البيانات وشبكات المعلومات دخلت مجتمعاتهم قبل أكثر من عقدين، وقامت مؤسسات وشركات بتغذية هذه المواقع وتحميلها بالمعلومات .



شكل رقم (١)

كما دخلتها التقنيات السمعية والبصرية على الشبكة لتزيدها جمالاً وتشويقاً مع التوسع في النشر الألكتروني Electronic Publishing من البرامجيات Soft Ware للمعلومات والتصميم والرسم Computer Art Desgin (CAD) .

لذا لابد من التفكير بالمواقع العربية خاصة الثقافة العربية على الشبكة .

تصميم وإنشاء مواقع الحضارة العربية والتراث :

إن أكثر المعلومات المطلوبة على المواقع، هي المواقع الثقافية والتاريخية منها. ويملك العراق والوطن العربي عمقاً حضارياً يمتد سبعة آلاف سنة في عمق التاريخ، بالإضافة إلى الآثار الشاخصة والغزيرة عكست الحضارات المتتالية والمتنوعة .

تحف وآثار تزخر بها المتاحف العربية والمتاحف الأجنبية, آثار وادي الرافدين والنيل وغيرها . . . تثير اهتمام العرب والعالم . من هنا جاء اهتمام البحث، بالمواقع التاريخية والآثارية العربية، كما يمثل هذا الموقع الهوية الثقافية والقومية للوطن العربي على الشبكة العالمية .

والمعلومات التاريخية والآثارية العربية واسعة وممتدة سيتناولها هذا البحث من أجل إنشاء الموقع المقترح .

يدعو البحث إلى إنشاء (موقع الطبري) للحضارة العربية والتراث على الإنترنت Tabari Web Site . أنظر شكل رقم (٢)

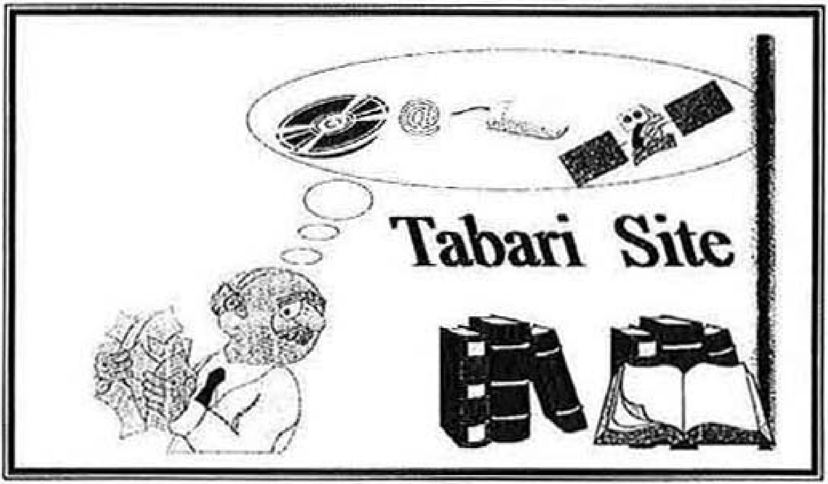
التوصيات والمقترحات

١ — يدعو البحث إلى إنشاء موقع للحضارة العربية والتراث على شبكة المعلومات العالمية، لسد الفجوة في هذا المجال وتحقيق الهوية الثقافية القومية والوطنية على الشبكة، مع الأخذ بالاعتبار الخطوات اللاحقة .

٢ — حشد مصادر التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده وهذه الخطوة قد فعلها المؤرخون العرب القدماء .

٣ — تقسيم التاريخ والحضارة العربية والإسلامية حسب المراحل الزمنية، بدأ من عصر فجر السلالات مروراً بالتاريخ الحديث والمعاصر .

٤ — جدولة أمهات الكتب التاريخية حسب تسلسل الحضارات، السنوات، الحكام، المناطق والمدن القديمة، الإعلام، القبائل، الحوادث التاريخية، مثل (تاريخ الرسل والملوك) للطبري ؛ (الكامل في التاريخ) لابن الأثير ؛ (البداية والنهاية) لابن كثير . . . على قواعد البيانات .



شكل رقم (٢)

٥ — جدولة كتب الطبقات والتراجم العامة والمتخصصة **Biography References**، مثل : (الطبقات الكبرى) لابن سعد ؛ (التاريخ الكبير) للبخاري ؛ (معجم الأدباء) لياقوت الحموي ؛ (وفيات الأعيان) لابن خلكان ؛ (تاريخ الإسلام) للذهبي ؛ (الإصابة) لابن حجر العسقلاني . .

٦ — جدولة كتب الأنساب **Genealogy References** بطريقة شجرية، مثل (أنساب الأشراف) للبلاذري ؛ (الأنساب) للسمعاني . .

٧ — جدولة الحوليات التاريخية **Chronicles**، مثل: (المنتظم) لابن الجوزي ؛ (شذرات الذهب) لابن عماد الحنبلي ؛ (الضوء اللامع) للسخاوي .

٨ — جدولة الكتب التي تؤرخ للمدن والأقطار **Ancient Geography References**، مثل (فتوح البلدان) للبلاذري ؛ (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي ؛ (تاريخ دمشق) لابن عساكر . . .

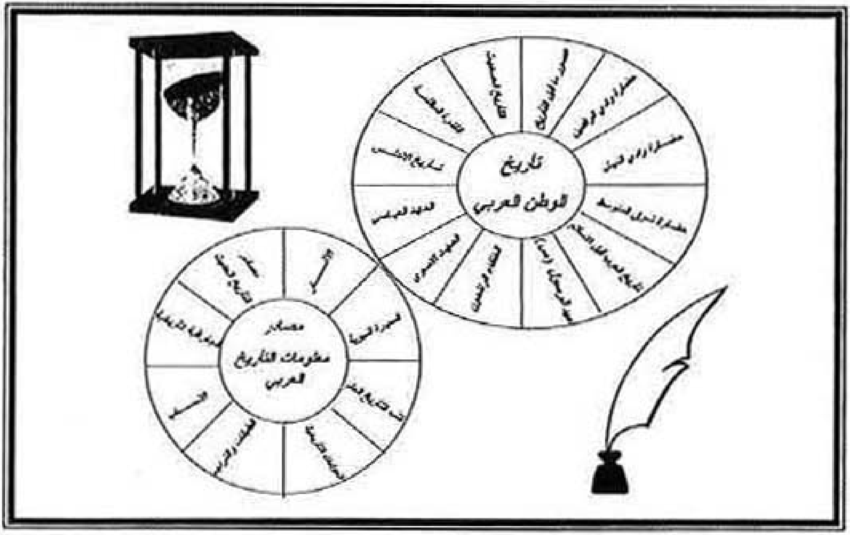
كما ينبغي أن تتم الجدولة للمعاجم الجغرافية القديمة Geographical Dictionaries، بما يقابلها من الأسماء على الخرائط الحديثة، مثل (معجم البلدان) لياقوت الحموي . . . أنظر الشكل رقم (٣)

٩ – الاستعانة بمناظر الآثار الشاخصة وآثار المتاحف والزخارف والفنون المعمارية على مر العصور، وتوظيف التصوير الفيديوي أو الرقمي Digital Photography، من أجل دمج النصوص Texts مع الصور Picture، والاستعانة ببرامج التصميم والرسم الفني CAD مثل Adopt ; Illustrators ; Coral Draw. . .لخلق موقع صوري Visual Web Site صوراً أو خلفيات Back Grounds، وتوظيف تقنية الخيال الحقيقي Virtual Reality, تمكن الزائر للمتاحف العربية من رؤية آثارها وأروقتها بالأبعاد الثلاثة والتفاعل معها . . .

١٠ – الاستعانة بالتقنيات الصوتية والموسيقى العربية لخلق مؤثرات صوتية، مما يجعلها مواقع مسموعة ومرئية Audio Visual Web sites تحقق التشويق والإثارة[٧] .

١١ – توزيع مهمة تحليل وجدولة الكتب التاريخية على المؤرخين كل حسب تخصصه، ولتأثر الهيئات الرسمية العربية بالبيروقراطية يمكن أن تشرف عليهم الجامعات مثلاً . . . مع مراعاة الأمانة العلمية في نقل النصوص والحوادث، دون تعليق على النص أو تحميله ووجهة نظر حديثة، تجنباً للجدل . . .

١٢ – يمكن إحالة تاريخ منطقة أو رقعة جغرافية لمؤرخيها، ويمكن استثمار ذلك بالحكومات أو الشركات المحلية أو العالمية على الشبكة أم بالنشر الإلكتروني على الأقراص المدمجة .



شكل رقم (٣)

١٣ — وقبل هذا وذاك، لابد من وجود قاعدة تحتية جيدة للاتصالات وتجارة الآلكترونيات[٨] في الوطن العربي ٥ وتشجيع الشركات المحلية والعربية أو الأجنبية على الاستثمار في هذا المجال من خلال تشريعات وقوانين مناسبة، كدعم وتحديث قوانين الملكية الفكرية العربية للنشر الإلكتروني، ووضع مواصفات موحدة **Standards** تنسق الإنتاج العربي وتتواءم مع الإنتاج العالمي للنشر الإلكتروني والأجهزة والتقنيات المنتجة في العالم .

١٤ — التوسع في إنتاج البرامجيات الثقافية العربية . وشحن المواقع العربية بكتل المعلومات العربية . مع حملة إعلامية مناسبة توضح فوائد وأهمية الاستثمارات للدولة والمجتمع والمواقع العربية المستحدثة .

١٥ — التنسيق في إعمال القليل الموجود في سوق النشر الإلكتروني العربي تفادياً للتكرار وهدر الجهد والمال مع مراعاة توخي رصانة المعلومات سعيا لتكامل شبكات المعلومات العربية والبرامجيات .

١٦ – تيسير الثقافة المعلوماتية، وإشاعة المعلومات الحاسوبية، من خلال سد الفجوة المعلوماتية من مناهج التربية والتعليم العالي لمختلف المراحل الدراسية، وتطوير مناهج التدريب والتأهيل للكبار، لسد حاجة المجتمع هذه من الثقافة وتأمين التواصل المعلوماتي ومواكبة التجارة الإلكترونية .

١٧ – تعميق الدراسات المتعلقة بهندسة الحواسيب والبرامجيات، ونشر أقسامها في كافة الجامعات, لإعداد كادر مهني قادر على تحليل المعلومات وإدارتها واستعمال تقنياتها بكفاءة عالية .

الخلاصة

شهد العقدان الماضيان من القرن العشرين ازدياداً هائلاً في المعلومات وتسارعاً تقنياً كبير في تكنولوجيا الاتصالات والأقمار الصناعية أظهرت آثارها شبكة المعلومات العالمية (Internet)

تقاربت الجغرافية, وانحسر الزمان .

ويعتبر هذا العقد والعقدان السابقان (عصر المعلومات وحضارة الاتصالات) دخلت المعلومات وأدواتها، كمتغير اقتصادي جديد لضخامة الاستثمار في هذا المجال، كما دخلت المعلومات كمتغير اجتماعي جديد, فأدت إلى نقلة واسعة في قطاع التربية والتعليم، وفي هذه الظروف ومع انتشار أفكار العولمة والنظام الدولي الجديد ظهرت هيمنة أخرى من نوع جديد، تمركزت السلطة المعلوماتية في أيدي الدول الصناعية المتقدمة (دول الشمال) حيث أزاحت اللغات والثقافات المحلية مما وضع اللغة العربية والثقافة أمام تحد كبير .

يناقش البحث المواقع والثقافة العربية على شبكة الإنترنت وهي قليلة جداً لا تتناسب مع عدد سكان الوطن العربي، ٢٥٠ مليون إنسان عربي .

يدعو البحث إلى إنشاء موقع خاص للحضارة العربية والتراث على الشبكة العالمية، وهي من الثقافات المطلوبة، وهوية البلد، حيث تمتد حضارة الوطن العربي سبعة آلاف سنة في عمق التاريخ، وله آثار شاخصة غزيرة ومتنوعة في المتاحف، مثيرة لاهتمام العرب وغيرهم، من خلال تطوير النشر الإلكتروني في مجال البرامجيات والاستعانة ببرامج التصميم والرسم والخيال الحقيقي والتقنيات الصوتية من أجل تكوين هذا الموقع، وتحميله وشحنه بكتل المعلومات النصية والسمعية والبصرية بالإضافة إلى تسهيلات وإجراءات من أجل تكامل شبكات المعلومات العربية .

يسرى صادق جلال

مصادر البحث

١ – بيتر – مارتن، هانس وشومان هالمرالد . فخ العولمة : الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية / ترجمة عدنان عباس علي، الكويت : المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٨ (سلسلة عالم المعرفة) .

٢ – التميمي، عبد الفتاح عارف وعمار أبو عيد، شبكات الحاسوب والإنترنت، عمان : دار اليازوردي، ١٩٩٨ .

٣ – دليل الإنترنت للعالم العربي ٢٠٠٠/ إعداد مركز التعريب والترجمة، بيروت : الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٠ .

٤ – ديرتوزوس، كيف سيغير عالم المعلومات الجديد حياتنا / ترجمة بهاء شاهين، القاهرة، وزارة الإعلام، ١٩٩٩، ج ٢ .

٥ – ريستون، والتر، أفول السيادة، كيف تحول ثورة المعلومات عالمنا / ترجمة سمير نصار وجورج خوري، عمان، دار النشر والتوزيع، ١٩٩٩ .

٦ – زرنة جي، عبد اللطيف، العولمة وانعكاساتها على نظم التدريب والتعليم، في المجلة العربية للتعليم التقني، بغداد : الاتحاد العربي للتعليم التقني . مج ١٧ ع ١/٢٠٠٠ .

٧ – ستيل، هايدي، كيف تستعمل الإنترنت / ترجمة مركز التعريب والترجمة، ط ٣، بيروت، الدار العربية للعلوم، ١٩٩٩ .

٨ – الكرملي، عبد القادر، تجارة الإلكترونية العربية والدعم الحكومي، في مجلة PC Magazine (العربية)، ١٩٩٦ .

٩ – ناريمان اسماعيل متولي، اقتصاديات عصر المعلومات، دراسة الأسس النظرية، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٥ .

١٠ – نبيل علي، العرب وعصر المعلومات، الكويت، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٤ (سلسلة عالم المعرفة) .

١١ – هاغرو، ماري، تصميم وانشاء وإدارة مواقع الوب العالمية، بيروت، الدار العربية للعلوم، ١٩٩٩ .

١٢ – Alter, Steven, Information Systems, 3rd ed. N.Y.: Wesley, 1999 .

الهوامش

١ — ولتر ريستون. أفول السيادة. كيف تحول ثورة المعلومات عالمنا / ترجمة محمد عزت نصار وجورج خوري — عمان : دار النشر والتوزيع، ١٩٩٩ . ص١١٠ .

٢ — نبيل علي. العرب وعصر المعلومات. الكويت. المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٩ . (سلسلة عالم المعرفة) ص٩٧–٩٨ وص١٨١ .

أنظر أيضاً : مايكل ديروتوزوس، كيف سيغير عالم المعلومات الجديد حياتنا / ترجمة بهاء شاهين. القاهرة. وزارة الإعلام. ١٩٩٩.جـ ٢ .

٣ — ناريمان إسماعيل متولي. اقتصاديات المعلومات . . دراسة الأسس النظرية. القاهرة. المكتبة الأكاديمية . ١٩٩٥ . ص٢٨٣ .

٤ — هانز بيتر مارتن وشومان هالمرد. فخ العولمة . . الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية / ترجمة عدنان عباس علي. الكويت. المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٨ . (سلسلة عالم المعرفة) ص١١ وص١٨٨ .

أنظر أيضاً :

Steven Alter, Information systems, 3rd ed. – N.Y. Wesley, 1999, P. 141 – 144.

٥ — هايدي ستيل. كيف تستعمل الإنترنت / ترجمة مركز التعريب والترجمة، ط ٣. بيروت، الدار العربية. ١٩٩٩ .

لابد من أخذ نسبة الأمية في الوطن العربي بنظر الاعتبار :

- تشكل الأمية الأبجدية في الوطن العربي ٤٠٪ ونسبة الأمية الحضارية تصل إلى ٧٠٪، أما الأمية التقنية فتصل إلى ٩٠٪ من مجموع السكان .
- أنظر : عبد اللطيف زرنه جي. العولمة وانعكاساتها على نظم التعليم والتدريب. في المجلة العربية للتعليم التقني. بغداد. الاتحاد العربي للتعليم التقني، مج ١٧ ع ١ / ٢٠٠٠. ص٣ — ١٩ .

٦ — دليل الإنترنت للعالم العربي ٢٠٠٠ / إعداد مركز التعريب والترجمة. بيروت. الدار العربية للعلوم. ٢٠٠٠ .

أنظر أيضاً :

عبد الفتاح عارف التميمي وعماد أبوعيد. شبكات الحاسوب والإنترنت. عمان. دار اليازوري. ١٩٩٨ .

٧ – ماري هاغرو. تصميم وإنشاء وإدارة مواقع الوب العالمية ، بيروت ، الدار العالمية للعلوم. ١٩٩٩ .

٨ – عبد القادر الكرملي. التجارة الإلكترونية العربية والدعم الحكومي. في المجلة العربية PC . ١٩٩٦ ، ص٤٣ .

* – ورد في (ندوة الغرفة التجارية والصناعية السعودية ، جدة ، كانون الأول ١٩٩٩) أن السوق الإلكتروني العربي ضعيف جداً حيث بلغت التجارة الإلكترونية ٩٥٦ مليون دولار خلال العام المذكور. في حين كانت التجارة الإلكترونية العالمية ١٠٠ بليون دولار للعام نفسه .

أنظر : الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات. صدى الاتحاد (نشرة) ، تونس ، الاتحاد ، ع ٤٨ /يناير ٢٠٠٠ ، ص١ .